

ياسر عبد اللطيف
قانون الوراثة
رواية

قانون

الوراثة

تجليات أدبية

إشراف: سيد خميس

قانون الوراثة

المؤلف: ياسر عبد اللطيف

الطبعة الأولى، ٢٠٠٢

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٥١٥٠٠ (٢٠٢)

merit56 @ hotmail. com

المدير العام: محمد هاشم

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع: ٢٠٠١/١٨٢٤٣

ياسر عبد اللطيف

قانون الوراثة

رواية

ميريت للنشر والمعلومات
القاهرة ٢٠٠١

الفهرس

مقدمات

صباح مثل آلاف الصباحات منذ سنوات بعيدة قريبة، طفلاً كان بعد يدخن بجوار سور المدرسة.

لم يكن مدمناً للنيكوتين، إنما التدخين وسيلته الوحيدة للاحتجاج على طول الطريق المفروش بالعجين - من البيت إلى المدرسة - والذي بالرغم من سيره فوقه كل يوم يظل منتظماً.

يتلفت يمنة ويسرة لمراقبة الجو، ومع أول غفوة يذوق فيها لذة التبغ للمرة الأولى، تسقط على كتفه قبضة مدرس اللغة العربية الأزهري مجدور الوجه ضابطة إياه متلبساً:

مسافر أبوك للسعودية ... أنت الأخ الأكبر ... مسئولية ... قدوة حسنة... صدق الله العظيم...

جمل تعبر أذنيه دخولاً وخروجاً، وهو غائب عن هلعه في ذلك اليوم القريب،إذ ذهب إلى المطار بصحبة أخيه وعمهما الطيب لاستقبال الأب العائد في إجازة قصيرة.

فر يومها الأخ الأصغر من قبضة العم الطيب، وتاه ضئيلاً بين سيقان المستقبلين والمسافرين.

هلع كهذا انتاب العم، وجرى باحثاً في الزحام عن الطفلِ، حتى وجده حاشراً رأسه الصغير بين قضبان حديدية تكون سياج صالة الوصول.

يصيح الصغير: بابا ... بابا، ومن بعيد كان الأب قادماً دافعا عربة الحقائب.

يحتضن العم الطيب شقيقه لاهثاً بعد جريه بحثاً عن الطفل (الأمانة).

ويتعلق الصغير بسيقان أبيه، ويصافحه هو في خجل مدققاً في شعيرات بيضاء وجدت طريقها إلى فودي الأب دون أن يشهدوا نبتها.

وفي العام التالي، كان بجوار نفس السور يدخن الحشيش هذه المرة، مرتدياً سترة شك طويلاً في أناقتها - مما احتوته تلك الحقائب. ينفث دخانا أزرق، ويدفع مع كل نفس شحنة غضب نحو مثل هذه اللحظات يتوعد من يضبطه هذه المرة بأن يفقأ عينه بلهب سيجارته لكن المدرس الأزهري مجدور الوجه، كان قد أعير إلى السعودية ليعلم أبناء الجزيرة العربية لغتهم، وألا يدخنوا أثناء اليوم الدراسي.

مندى جبين الأم من الحمى.
وتهذي المرأة الغائب زوجها وهو إلـــى جــوار الســـرير
طفل لا يحسن التصرف،
إلى جواره أخوه الصغير ككرةٍ بلهاء.
يزداد هذيان الأم فيبكي هلعاً.
وتجئ "دنيا" بضمادات الماء البارد، وأعوامهـــــا الثمانيـــة
عشرة كملاك الرحمة.
تحتضنه ليهدأ روعه، وتطبب الأم.
أنف طفل في العاشرة بين هذين النهدين
لحظة كاد أن يفقد أمه تسللت دنيا فيها تحت جلده كبديل له
امتياز الإرضاء الجمالي
جاءت دنيا حاملة ضمادات الماء البارد، لتطبب الأم،
ولتحتل حياته لسنوات بعدها.

ويعود الأب الغائب من الخليج بسيارة وأحلام مؤجلة
وينتظم شكل الأسرة مرة أخرى بعد طول غياب؛
ضبط وربط، أين تذهب هذا المساء؟
السينما مع الأصدقاء حجة جاهزة لجولات مساء الخميس.
ويذهب مع محمود إلى غرزة بمصـــــر القديمـــة ليدخنـــا
الحشيش بصحبة بعض العمال.
توجس أول مرة ذهبا فيها، ورهبِ المكـــان والجالســين،
وأخذ يدخن في حرص خشية أن يسطل فيبطش به هؤلاء،
أو يجعلونه محط سخرياتهم لهذه الليلة..
يتذكر أمه وهي تعد الحساء .... أهذه هي السينما؟
دفء المنزل.. ما الذي أتى بنا إلى هذه العشة؟
لسنا سوى تلميذين صغيرين بإحدى المدارس الفرنسية.
لكن رهط العمال يهذي دون حســـاب، وهـــو وصديقـــه
ثابتان يتبادلان نظرة من بين رقص المســـطولين كنخـــب
انتصار، ثم يخرجان من الغرزة كبحارين لم يعرفا يومـــاً
الحقائب المدرسية المثقلة بالواجبات.

كلية الآداب، قسم الفلسفة، يكتب القصة؛
قدمته الفتاة إلى أصدقائها، أعضاء أسرة الحرية..
له أن يمسك بياقة قميصه ليعدل هندامه، ويتنحنح أمام الطلبة اليساريين.
سجائر لا تنقطع، وكوفيات فلسطين، وتحيات بحرف V النصر، أيها الزميل:
قصتك لا بأس بها لكنها مغرقة في الذاتية...
البيروسترويكا.. وتشاوشيسكو لم يسقط بعد.. هل قرأت مائة عام من العزلة...
كانت معلمة الرسم الجميلة في العام الماضي - عامه المدرسي الأخير، قد طلبت منهم أن يرسموا الطبيعة الصامتة. فرسم قبر دون كيشوت مسنداً عليه الحربة،ونقش على شاهده أبيات نجيب سرور:
"أنا لستُ أحسب بين فرسان الزمان
إذا عُدّ فرسان الزمان
لكن قلبي كان دوماً قلب فارس
كره المنافق والجبان
مقدار ما عشق الحقيقية."
وكانت في خلفية الصورة تبدو طاحونة هواء عليها غراب الخرائب
ورأت المعلمة أن وجود الغُراب بالصورة ينفي كونها طبيعة صامتة.
عاد حاملاً قصته، كما عاد حاملاً صورته فيما مضى،

خلفه ذيل طويل من خيبة
الأمل، ومصاب باحتقان في آماله.
معلمة الرسم، أعضاء مؤسسة الحرية، جامعة القـــاهرة ...
شكراً

صالة البنج بونج في نهاية الفناء، بجوار معمل الكيمياء، ومتاخمة للسور الخلفي للمدرسة.

من هناك كان بإمكانهم - بعد أن يغلقوا باب الصالة من الداخل - أن يقفزوا في الفسحة خارجين إلى رحابة الحياة، يشترون السجائر من كشك قريب ويعودون قبل موعد العودة إلى الفصل، وأحياناً لا يعودون. تلك الصالة كانت واحتهم في صحراء الانضباط.

يتبادل مع هشام صديقه ضرب الكرة عبر الطاولة؛ هشامٍ لا يحسن اللعب، لكنه من القليلين الذين لا يحدثون صخباً يتلف جو الصالة الأليف.

الآخرونٍ منهمكون في كرة القدم بالخارج، واللعب هنا ليس شيقاً لكنه أفضل.

يسمعان نفير دراجة بخارية يعرفانه جيداً خارج السور. ذلك محمد سليمان المتغيب عن الدراسة ذلك اليوم، والوحيد الذي يملك دراجة بخارية، يسيرون بدراجاتهم ذوات الأسلاك المفككة إلى جواره كسلحفاوات عرجاوات.

يطلان عليه عبر السور ... لماذا لم تحضر اليوم ياسلمون؟

ويجيب بأنه لم يرق له المجيء، وينفث دخان سيجارته العالقة بفمه ويداه على زمام الدراجة.

... هلا أعطيتني سيجارة ياسلمون..

ويرد سلمون بهدوء أنه لم يأخذ منه ولا سيجارة فلماذا يعطيه واحدة.يهبطان من تعلقهما بالسور، ويسمعان صوت

الدراجة البخارية تبتعد.
ينظر إلى هشام متسائلاً عن معنى ما قاله سلمون
فيرد هشام: "C'est la vie contemporaine Monsieur"...
ويضرب الكرة باتجاهه في ركاكة عبر الطاولة، فتضل بؤرتها عليها، وتضيع في الهواء...

سيراً على الأقدام

يقطع الضاحية ليلاً من أقصى شمالها حيث بيته، إلى أقصى جنوبها حيث بيت صديقه. الشباك الذي لغرفة محمود مغلق منذ ما يقرب من عام.

يمر به في طريقه إلى بيت نادر جار محمود وابن خالته، ملتفتاً إليه في غير قليل من الأسى، الذي يرسخه حديثه مع نادر في ظلام الشرفة على أضواء السجائر والشاي، والموسيقى التي تراجعت إلى هامش الشعور.

الحديث عن أخبار الطرق التي سلكوها في الحياة، ومن التقوا من الوجوه القديمة وعن عذاب صديقهم هشام في أروقة القصر العيني.

في آخر زيارة لمحمود كان الأخير جالساً على مكتب غرفته ورأسه ساقطاً على الطاولة منخرطاً في بكاء شديد معتذراً له بأنه لم يكن يحب أن يراه في هذا الوضع، وهو واقف إلى جواره صامتاً عندما دخلت أمه مرتدية كيمونو يابانياً أحمر، عاقدة يديها على بطنها. نظرت إليه من فوق نظارتها المنزلقة على أرنبة أنفها الكبير وسألته عن الأخبار فأجابها بأنه أقنع محمود أخيراً بالذهاب إلى مصحة.

قال له أنت تلعب جيداً، لكنك تهتم بتناغم اللعب بينك وبين الخصم، وفي تنس الطاولة المهم هو إحراز النقاط.
ولما كانت المدرسة قد أزمعت الاشتراك في دوري المنطقة التعليمية، استبعد وزملاؤه ممن كانوا يحتلون قاعة تنس الطاولة من تمثيل المدرسة، وأشارت الإدارة على لسان مدرس الألعاب أنهم يعرفون جيداً كيف تستغل عصبة الصياع هذه صالة البنج بونج.
وأشار الرجل إلى أعقاب السجائر المتجمعة في الأركان، ونظر بعينه نظرة فحواها أن ما خفي كان أعظم..
كون الطلبة الرياضيون بالمدرسة فرقاً للألعاب المهمة: ككرة السلة واليد والقدم طبعاً، أما تنس الطاولة فقد جيء لها بطلبة نصف مهرة لم يكونوا أبداً من رواد صالة المدرسة.
ولما كانت قوانين المنطقة التعليمية تنص على أنه لا يجوز للطالب الاشتراك في أكثر من لعبتين فقد بقي فريق الكرة الطائرة شاغراً،وكانت المدرسة لا تراهن على بطولتها كثيراً نظراً لأنه بالمدارس المجاورة من هم في منتخب الأشبال بفريق الدولة وبالتالي كان تكوين فريق للكرة الطائرة من باب استكمال الفرق ولذر الرماد في عيون المدارس الأخرى.
قال شخص في الإدارة لنأتي بالستة الخاملين من الصف الأول الثانوي للطائرة بدلاً من تركهم للشوارع أيام الدوري.

ووقفوا بنصف الملعب المخصص لهم، وجـــدوا أنفســـهم في ملعب الطائرة وضربات إرســـال الفريــق المنـــافس تنهمر فلا تجد من يستقبلها، خاصة إذا عرفنـــا أن ثلاثـــة من اللاعبين كانوا من ذوي النظارات، وهشام الذي كـــان يقف بالملعب واضعاً يديه بجيوبه،

والسمين الذي لا يقوى على رفـــع ذراعـــه؛ نـــاهيك أن الستة كانوا من المدخنين، فهم رواد صالة تنس الطاولة.

١ – الفاشيون

يمكن أن تكون القاهرة مدينة ملهمة، خاصة في الشتاء.

هكذا فكرت وأنا عائد مساءً. توقف الميكروباس عند استسلام الكوبري العلوي للشارع، المطر ينهمر، والشارع رقم ١٠ تحته، وطعم السيجارة المبلل بالماء. لا يزال الشتاء كالدين، كلاهما مجال صالح لتمرير العاطفة، خاصة الحزن. صفير يمتد ثم يتقطع كموسيقى تصويرية لهذا المشهد، تركيب النغم الصالح لاستدرار الحنين لمشهد أنتج آلاف المرات ورسخ في الذاكرة التي سيداعبها اللحن فيبعث المشهد.

منذ استيقظت هذا الصباح و أنا أشعر كأني أتحرك في رواية.

منذ وطأت أقدامي أرض الحجرة تحت السرير مباشرة، تتلمس موضع الشبشب في ظلمة أعقاب نوم الأربع

ساعات، ثم السير مترنحاً إلى الحمام، وإضاءة الضوء بالرغم من ضوء الصباح المتسرب من شباكه.

فوق الصنبور خزانة صغيرة لحفظ معاجين الأسنان وما شابه، ضلفتاها على هيئة مرآتين تنفتحان إلى الداخل فتتواجها، وتمنحاك أعظم فرصة في حياتك: أن تري نفسك في المرآة عبر مرآة أخرى.

أن تنظر إلى نفسك في المرآة مباشرة فأنت لا تراها، بل ترى عاطفتك نحوها التي تسبغ على الصورة المرسومة أمامك جمالاً في كل الأحوال.

أما أن تنظر إلى نفسك في المرآة عبر مرآة أخرى، فأنت تراها بمعزل عنها؛ تنظر إلى جانب وجهك الأيمن فترى الأيسر، والعكس صحيح ... تراها كموضوع خارجك. لكن إياك والانديـاح وراء التكرار اللانهائي للصورة في الانعكاسات المتعاقبة، ذلك قد يمنحك وهماً بالخلود.

اكتف بالانعكاس الثاني لصورتك، وستتعلم ألا تعشق ذاتك ذاك العشق الأعمى، وتضبطها حين تتجمل، و تخضعها لسياطك كي ترفع عنها كل ما ليس لها.

-لن تكون مجنوناً ولن تحاول الانتحار

- لماذا؟

-لأنك سبق أن فعلت ذلك.

هكذا حدثتني فرنسواز ميكيه، كندية-فرنسية، التقينا صدفة، وتكررت اللقاءات العشوائية حتى صار لزاماً أن نلتقي بشكل قصديٍ، وكان لقاء وحيداً دام خمس ساعات، وكنت خارجا لتوي منهكاً من علاقة حب، وحكيت لها ذلك ضمن ما حكيت عن نفسي. وبحدس امرأة في الرابعة والثلاثين فهمت أي دور بإمكانها أن تلعب معي، لكنها لم ترِد.

إذا تكلمت من خلال المرآة الأولى، أقول أنها لم تُرِد، أما إذا أخلصت للمرآة الثانية فأقول أني لم أكن مغرياً لها لتلعب ذلك الدور معي.

وبعد ذلك اللقاء - وبالرغم من حميميته - صارت تتملص من محاولاتي لمقابلتها، حتى اختفت نهائياً.

..." عشت في فرنسا بالروح البسيطة الهادئة المميزة، لأهالي كيبيك، وكنت دائما متخلفة عن الجميع، وعندما بدأت أتأقلم على الإيقاع الباريسي كان على أن أعود إلى كندا، فلم أستطع تغيير طبيعتي الجديدة فكنت أبدو هناك على عجلة من أمري، ولا أطيق البقاء في مكان واحد طويلاً، وها أنا في مصر منذ تسعة أشهر ...inch'allah".

محاولة تخيل أول فتاة ستقابلها اليوم في طريقك، وكيف سيتشكل اليوم وفقاً لذلك، جزء من لاهوت الصباح.

سروال، بنطلون، فانلة، قميص، بلوفر، فبلوفر آخر،

وسويتر، ولا تخرج من الكُم سوى يدي لتمسك بـالقضيب المعدني الموازي لسقف المترو، وفي المحطة التالية يتضاعف الزحام داخل المترو؛ أقف على ساق ونصف.

ساقي المنثنية تمتطي صهوتها فتاة، والزحام ستّار. الفتاة ترتدي بنطلون جينز وحجاباً فوق رأسها، وكأن نصفها السفلي متحرر، ونصفها العلوي محافظ. يتقلص فخذاها حول فخذي، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير أن هذا ليس من العدالة الجنسية؛ إذ أنها تحك عضوها الأنثوي في فخذ ذكري. لكن ذلك لم يمنع سريان الدفء من فخذي إلى سائر أعضاء جسمي. بينما راحت هي- تأكيداً على رأيي في انفصال جزئي جسدها- تثرثر بشكل هيستيري مع زميلة لها، مولِية وجهها الجانب الآخر من الاتصال الحقيقي القائم. تركت جسمها يرتع في مراع أخرى، بمعزل عن جهازها اللغوي الذي ظل بصحبة الله، وركاب المترو وزميلتها التي ترتدي الحجاب مثلها.

أخرج من نفق المترو، من فوهة تطل على أشهر أرصفة القاهرة؛ ذلك الرصيف الذي يقع به مقهى "علي بابا" وكافيتريا "زد" وبائع الجرائد الشهير.

وفي كل مرة أتدلى من المعادي إلى قلب المدينة أختار فوهة مختلفة للنفق أخرج منها، مدخل مختلف للمدينة في كل مرة: مرة شارع البستان ومرة شارع

التحرير، قصر النيل، شامبليون، وفي أغلب المرات شارع طلعت حرب. أما الآن فسوف أدخل من شارع محمد محمود...

عندما عاد هنري ميلر إلى بروكلين بعد ضياع سنوات في أوروبا، وإذ دخل الشارع الذي يقع فيه بيتهم، وجد دكان البقال الذي ضرب أمامه طفلاً قد تحول إلى حانوتي. أنا أيضاً لعبت المصادفات الموضوعية دوراً ما في تحولات الأماكن وعلاقاتها بي. فإذا انحرفت داخلاً شارع محمد محمود وعلى يدك اليسرى بعد الجامعة الأمريكية مباشرة، ثمة مبنى مقبب، له باب ذو قوس مدبب: هذا المبنى هو دار الحضانة التابعة للمدرسة الفرنسية المجاورة له، حيث قضيت شطراً من طفولتي، ذلك أثناء إقامتنا في بيت الجد بعابدين، قبل رجوعنا إلى المعادي ومن ثم انتقالي إلى فرع المدرسة بالضاحية. ذلك المبنى المقبب لدار الحضانة كان على عهد طفولتي الأولى، مطلياً باللون الوردي، فناؤه الصغير المبلط بالفسيفساء يطل على الفناء الرملي للمدرسة الكبيرة خلال حديقة صغيرة ذات بوابة خشبية رقيقة تفصل ما بينهما. وأبواب الفصول الصغيرة التي اصطفت حول ذلك الفناء المبلط، كانت لها أيضاً أقواس مدببة. مفردات ذلك العالم الوردي غلفت طفولتي بما يشبه الحلم: فسقية الماء الصغيرة التي تطفو على سطحها أوراق اللوتس، وكانت

بعض الضفادع تقف على أوراق النبات المائي العريضة، فنداعبها بحذر بأفرع شجر نمسكها بأيدينا، مسرح العرائس الصغير الذي كانت تقدم عليه مدام جورجيت بعض عروض القراجوز ناطقة بالفرنسية، لم نكن نفهمها طبعاً في ذلك الوقت لكننا كنا نستمتع بذلك كثيراً، البيانو الأسود الذي كانت تعزف عليه مدام "نبيلة حبشي" بأصابعها المطلية دائماً بألوان جميلة، كم تمنيت وأنا صغير أن تستضيفني في منزلها كي أراها بملابس البيت، ولست أدري لماذا كنت أتخيل دائماً أنها إذ تبقى بالبيت فهي تلبس خواتم بأصابع قدميها.

الظلال وامتدادها على الحوائط الوردية، وكيف كنت أضاهي بين ازدياد مساحتها واقتراب ساعة الانصراف، حيث سيقف رجل الجرس ليقرعه في الحديقة الصغيرة بين الفنائين، وحيث بإمكاني أن أجد أمي بانتظاري على باب الخروج.

وذات صباح مبكر من خريف ١٩٩٠ جئت إلى هذا المكان، وكنت قد تناولت كمية كبيرة من الأقراص المهدئة، وبالرغم من ذلك لم أستطع النوم، قلت أزور مهد طفولتي الحالمة علني أجد ما يهدهد ذاكرتي، وخدعت البواب بأني داخل لأسأل عن أوراق إلحاق أخي الصغير بالحضانة، فسمح لي بالدخول. لم أجد أي ظلال لذكرياتي عالقة بالمكان، فخرجت، واستقللت

القطار عائداً إلى المعادي.

كنت قد حكيت حكاية ميللر لأقول أن المبنى الذي كان وردياً صار الآن رمادياً، لا بفعل الزمن، إنما بفعل نقاش حاذق انتقي له لون الطلاء المناسب كي أقف الآن بعد عشرين عاماً أتأمل طفولتي الأولى.

أي طفل يقبع الآن داخله سيقف بعد عشرين عاماً أخرى ليتأمله؟ وكيف سيكون لونه؟ لعله من الأنسب للأيام القادمة أن يكون أسود، وأن تطلى شبابيكه وأبوابه ذات الأقواس المدببة بالأحمر لتناسب مع مطاعم الوجبات الجاهزة الأمريكية المقابلة له على الرصيف الآخر.

لو استمررت في السير بشارع "محمد محمود" حتى تقاطعه مع شارع نوبار، لعرفت أنه يتخذ بعد ذلك طابعاً مختلفاً؛ أول مظاهر هذا الاختلاف هو اختلاف الاسم؛ فإن اسمه يتحول إلى شارع "قوله" ثانياً أنت لم تعد في حي باب اللوق، بل أنت في قلب حي عابدين وعلى بعد خطوات من ميدانه ذي القصر.

يختلف الطابع المعماري، ويضيق عرض الشارع قليلاً. و"قوله" هو اسم مسقط رأس محمد علي باشا جد الخديو إسماعيل مؤسس القصر والميدان.

وقبل تقاطع شارع قولة مع شارع محمد فريد عماد الدين سابقاً، وعلى يدك اليسرى هذه المرة، يوجد شارع

ضيق، أليق به أن يكون حارة، لكنه سمي شارعاً لأن بداخله عطفة صغيرة تحمل اسمه تحت تصنيف حارة. والشارع الحارة، والحارة العطفة هو شارع البلاقسة.

وبذلك الشارع يوجد ضريح لمتصوف مجهول يدعى "الشيخ حمزة". وهناك كنت صغيراً تسحبني أمي من يدي لتشتري شيئاً من علاف مقابل للضريح، وكان وقت مولد الولي. ولأن المولد كان على نطاق ضيق، فقد جمعت كل ديكوراته في ذلك الحيز الصغير لشارع البلاقسة: الأراجيح، وألعاب المفرقعات، والسرادقات..

وفي هذا المولد شاهدت ما لم أشاهده بعد ذلك في أي مولد من الموالد الكبيرة، والتي حضرتها كبيراً وطوع إرادتي، والتي نظراً لاتساع نطاقها - كمولد السيدة زينب مثلاً - تضيع بعض التفصيلات، والتي قد تكون جوهرية في زحام البشر والتفاصيل.

وكان ذلك الشيء الفريد الذي شاهدته من موقعي المنخفض الذي يصل إلى ركبة أمي، هو كشك أحمر اللون، يطل من شباكه رجل له لحية كبيرة، يمسك بيده آلة حادة تشبه موسى الحلاق، ويمسحها بقطنه يمسكها بأصابع يده الأخرى.

تشبثت أكثر بيد أمي، وسألتها عما يفعل ذلك الرجل، أجابت دونما اكتراث: أنه المطاهر. كل ما رأيته بعد ذلك اصطبغ باللون الأحمر: نيران المفرقعات،

والسرادقات، والأضواء الراعشة، والدماء، الدمـــاء التـــي أخذت تنزف في مخيلتي. وما هالني أكثر ودفـــع حركـــة التساؤلات في رأسي الصغيرِ إلى أوجها، أنني رأيتهم يرفعون إليه بنتاً وليس صبياً، مباعدين ما بين فخذيها...

وبنفس هذا الشارع (الحارة) ومنذ خمســين عامـــاً، عاش حنا ابن سعدِ اللــه بائع الجاز، شخص أسطوري، لم أره بالطبع لكن حكي لي عنه.

سمعت أن حنا ضاجع معظم نساء الحارة في وقتـــه، وليس بالأمر الغريب أن يظهر من آن لآخر فـــي مكـــان كهذا أو غيره مثل ذلك الكازانوفا؛ إلا إن كازانوفا البلاقسة لم يكن يحملِ من مقاييس عصره للفحولة أي شـــيء. فقـــد كان قصيراً، نحيلاً ممصوص الوجه في عصر كان يقاس فيه الجمال بالرطل قبل دخول وحدات القياسِ الفرنسية في المعايير والجنس، يرتدي ملابس ملوثة دائماً بالكيروســين من جرِاء عمله في محل أبيه، إضافـــة إلـــى ذلـــك كـــان مسيحيا....

يقبع كالفأر خلف منضدة مشحمة، يستقبل زبوناته من نساء الحارة، ولم تفرق ذائقته بين زوجة تاجر أو شيخ أو أفندي من الموظفين، وكـــانت لـــه طريقـــة فريـــدة فـــي اصطيادهن: فلأنه من سكان الحارة، عارف بأهلها، يبـــدأ مع فريسته بسؤالها عن أحوال زوجها، وشيئاً فشيئاً يتلبس حركات ذلك الزوج، ويبالغ في أدائها حتى يحيل الـــزوج

إلى مسخ تعرف فيه الزوجة (الفريسة) أي أكذوبة قامت عليها حياتها، في لحظات يقوض مؤسسة عمادها ذلك الزوج، ولكي يطرق الحديد ساخناً، يزورها في الصباح التالي مباشرة بعد التأكد من غيبة الزوج، بعد ذلك إن هي إلا استراتيجيات بسيطة أجادها تمكنه من السرير الذي لم يعد مقدساً.

سمعت ذلك من السيدة صفية جارة جدي قبل مماته، جارتنا بعد الانتقال الأول إلى حي عابدين المنزل ٣٩ شارع مصطفى كامل، وإحدى عشيقات المغفور له حنا.

ولم يكن الحكي موجهاً لي، وإنما لأبي والذي كانت تعامله كابن من أبنائها تستطيع أن تتسامر معه بما لا تستطيعه مع أبناء بطنها...

قالت أيضاً إن زوجها ظل لسنوات يتساءل عن سر الكيروسين الذي كانت تمسد به الوسادة قبل اضطجاعهما، استحضاراً لذكرى حنا.

وكنت أصغي وأرقب بحواس من سيفهم لاحقاً.

كانت السيدة صفية قد هرمت، بلغت السبعين أو جاوزتها، بعينيها المكحولتين تجلس كاللبؤة سخمت إلهة الحرب على كرسي كبير في صالة شقتها مفتوحة الباب على سلم العمارة، ترقبحركة الصعود والنزول باندهاش، إذ أن كثيراً من الغرباء صاروا يرتادون العمارة التي

كانت تعرف كل صغارها قبل كبارها.تمصمص شفتيها، وتخبط باطن كف بظاهر الأخرى في حركة تشتهر بها النساء الشعبيات، وتتمتم:" أشكال وألوان زي فاتورة سمعان ".

الآن أعرف أن سمعان هو المليونير اليهودي صاحب محلات صيدناوي، وأن الفاتورة هي كتالوج الأقمشة، وأن ثلاثة أجيال من عمر القاهرة ولغتها كانت بيني وبين السيدة صفية.

وبانتهاء شارع قولة نكون قد وصلنا إلى ميدان عابدين ليقف في تمام المواجهة القصر الكبير؛ والقصر بناء أبيض غير مرتفع، مساحة حدائقه تتسع إلى العمق بحيث لا يبدو ما يليه من العمار. فيشكل مبنى القصر بذلك للواقف في قلب الميدان أفقاً أبيض يلتحم مباشرة بزرقة السماء.

وإذا كان الوقت شتاء، كما الآن، سيبدو المكان كأنه غارق في ضوء قمر دائم .خفوت حدة الشمس، والأفق الأبيض للقصر، والفضاء الشاسع ذو الخضرة. بإمكانك الحصول على ذلك المشهد لو جردت القصر والمكان كله من دلالاته السياسية والاجتماعية، بمعنى آخر لو جردته من تاريخيته.

أنا لا أحاول التملص من رومانسيتي، لكني أحاول تقليصها قدر الإمكان.

بحذاء السور الجنوبي للقصر يوجد شارع الشيخ ريحان، الذي يمتد شرقا حتى شارع بورسعيد (الخليج المصري سابقا) الذي يفصل بين حي عابدين والسيدة زينب والدرب الأحمر، ويمتد - الشيخ ريحان - غرباً حتى ميدان التحرير. وفي عطفة صغيرة متفرعة منه موازية للميدان وعلى مرمى حجر من القصر عاش جدي مع أسرته في مطلع حياته قبل أن تنتقل العائلة إلى البيت ٣٩ شارع مصطفى كامل الذي يتفرع بدوره من شارع الشيخ ريحان.

لم يكن انتقال جدي بأسرته من بيت عطفة الجنينة، إلى منزل ٣٩ مصطفى كامل مجرد دلالة على الارتقاء الرأسي في سلم المجتمع إنما كان أيضاً دليل تبدل في نمط حياته وأسرته: وبمعنى أدق: التحول من صفوف العمال إلى طبقة الأفندية. وكان قد بدأ حياته العملية كبارمان في أحد الأندية التابعة لأحد الأحزاب.و من هناك ..من خلف البار ..سمح لنفسه ذات مرة بالتدخل في حوار دار بين أحد الباشوات و وجيه آخر - على الناحية الأخرى - حول كتاب أحمد أمين " فجر الإسلام"..لم ينتبه الباشا إلى الرأي المحافظ الذي أبداه البارمان معارضاً لهما، ولا لتعارض ذلك الرأي مع كون قائله ساقياً للخمور، إنما أثار انتباهه وجود بارمان نوبي على تلك الدرجة من الاطلاع بحيث يكون قد قرأ كتاباً ككتاب أحمد

أمين حديث الظهور آنذاك، بل وكون عنه رأياً كاملاً وإن كان رأياً رجعياً.. وهنا عرف منه الباشا أنه حاصل على شهادة الابتدائية التي كانت تؤهل حاملها تلقائياً للحصول على لقب أفندي، فقرر تعيينه في وظيفة إدارية بمقر الحزب، بل ووعده بمساعدته على استكمال تعليمه. ربما لم يكن ذلك عطفاً أرستقراطياً من قبل الباشا على ذلك البارمان المثقف البائس؛ بل تعاطفاً ذا صبغة برجوازية صغيرة، فالباشا في الأصل مدرس سابق، ومتهم سابق في قضية اغتيال السردار الإنجليزي لي ستاك.

هذا التحول الذي طرأ على شخصية جدي والذي بموجبه انتقل إلى صفوف الأفندية الموظفين، صاحبه تحول آخر يستهدف العمق ؛ إذ أن ابتعاده عن مهنة السقاية في البارات قد سمح له بإطلاق العنان لنوازعه الدينية لتأخذ مكانها على السطح، فأطلق لحيته وحف شاربه، وإن احتفظ بزيه الأوروبي.

لم يكن تدينه جزءاً من الاتجاه الديني الذي اتخذته الليبرالية المصرية في الثلاثينيات، والذي على إثره تحول كتاب مثل طه حسين والعقاد إلى كتاب إسلاميين، بل كان وسيلة للاندماج في المجتمع الكبير الذي ظل فيه غريب الوجه واللون.كان طريقه للالتحام بما هو أعمق من تلك الفوارق. إذ أن تلك الحياة الليبرالية التي عاش

على هامشها، ساقياً في أندية رجالاتها، ثم موظفاً في أروقة أحزابها لم تكن لتقبل بسهولة في تلك الفترة فكرة أن يكون هنالك أفندي نوبي؛ فالليبرالية التي أنجبت رجالا مثل لطفي السيد هي نفسها التي أنجبت الطاغية العنصري إسماعيل صدقي.

إلا أن ذلك التفسير الاجتماعي المستند إلى ما عُرف بعقدة الخروج من الجيتو قد يكون ظالماً بعض الشيء وسنحاول أن نجد له تفسيراً آخر (نفسي- وجودي) يكون بالنسبة للتفسير الأول بمثابة الروح من القانون، فمن الأرجح أن علة التدين هي تلك الأزمات النفسية الغامضة التي كانت تداهمه من حين إلى آخر، فكان يعتكف على إثرها في غرفته لا يكلم مخلوقا.

فبالرغم من الاستقرار الاجتماعي والرفاهية النسبية التي حازهما بعد حصوله على تلك الوظيفة، إلا أنه كان يسقط بين الحين والآخر فريسة لنوبات من الاكتئاب الغامض، لأيام تخف بعدها حدة النوبة فتعاوده بشاشته المعتادة شيئاً فشيئاً. إلا أنه في أحد الأيام دخل في نوبة مماثلة ولم يستطع أي شيء أن يخرجه منها وبالرغم من أنه بعد أيام استطاع أن يذهب إلى العمل صامتاً، ويعود صامتاً، يغلق على نفسه باب غرفته وطالما هو بالمنزل فهو محبوس في غرفته لا يبارحها.

وهنا لم تجد جدتي حلاً سوى الإرسال في استدعاء

"فتحي" ابن أخيه من الخارج، ففتحي هو أقرب إنسان إلى قلبه وهو الذي (معه سره). وبالفعل جاء في غضون أيام، ودخل إليه في غرفته وبقيا معاً لساعات لم يقطع وحدتهما فيها سوى جدتي التي كانت تزودهما من آن لآخر بالشاي والمخبوزات.

خرج فتحي في النهاية باسماً متأبطاً إياه واصطحبه في جولة على المقاهي التي اعتادا الجلوس عليها في الأيام الخوالي، ليلتقيا بأصدقاء وأقرباء قدامى. وفي آخر الليل وعند عودتهما كان جدي قد عاد إلى طبيعته البشوشة.

وجدي بالرغم من كونه عماً لـ "فتحي"، إلا أنه لا يكبره سوى بعام أو عامين على الأكثر؛ فجدي هو الأصغر بطابور طويل من الأشقاء، ففتحي هو ابن أكبرهم. وقد وفد كلاهما إلى القاهرة في قطار واحد، بعد أن حصلا على الشهادة الابتدائية من مدرسة "الدر" ببلاد النوبة عشية اندلاع الحرب الكبيرة الأولى. نزحا لاستكمال التعليم بالأساس، فأخذتهما تصاريف الحياة في المدينة التي كانت تشهد تحولاً عنيفاً آنذاك فانصرفا عن التعليم النظامي - إن طوعاً أو اضطراراً - إلى سوق العمل. وتقلبا في العديد من المهن الصغيرة التي كانت تتاح بالقاهرة لمهاجري النوبة آنذاك. وسارت الحياة بهما في مسارين متوازيين. وبينما واصل جدي تعليمه الذاتي، مترافقاً مع تطور نمط حياته الذي (وصل به إلى

الوظيفة الصغيرة بالحزب الكبير، وزوجة وأبناء بشقة صغيرة بحي عابدين)، انخرط فتحي كلية في التيار الحسي للحياة، وخلال خمس عشرة سنة كان قد خبر كل دروب الحياة التحتية للمدينة بشقيها البلدي والافرنجي.

يحمل فتحي وجها مشابها لوجه عمه. يتشابهان في القاعدة الأساسية للملامح. و بينما اكتسبت تلك الملامح حدة لدى فتحي تلطفت قليلا على وجه عمه؛ كما لو كان الاختلاف بين وجهيهما يعود إلى طريقة كل منهما في الحياة.

وفي منتصف الثلاثينيات كان قد رسا المسار بفتحي عاملاً بأحد فنادق سليمان باشا. وهناك عشقته فتاة من بنات الجالية الإيطالية كانت تعمل معه بنفس الفندق. وانخرطا في قصة غرام ملتهب أثارت حنق بني جلدة الفتاة من شباب الطليان الذين تفوشوا بالمهجر، وقرروا قتل ذلك الأسود الذي دنس الشرف الروماني، وفي فورة من غضب يميني عام كان يشكل الجزء الأكبر من السياق وتحت مظلة الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة التي لم تكن معاهدة ٣٦ قد ألغتها بعد.أخذوا يجوبون القاهرة علي ظهور دراجاتهم البخارية، مرتدين قمصانهم السود بحثاً عن فتحي، حتى داهموه جالساً يحتسي الزبيب ببار من بارات شارع فؤاد (٢٦ يوليو حاليا) جهة بولاق.. وبمجرد أن لمح فتحي

الدراجات من خلال الباب المتأرجح للبار حتى سارع بالقفز من شباكه بينما هم يدلفون داخلين.. طاردوه بطول شارع فؤاد.. وفي شارع السبتية الجديد .. ساقاه اللتان تسلق بهما النخل صبياً أسعفتاه أمام الدراجات السريعة لأشبال المحور.. ضاع فتحي عن أعينهم تماماً في الأزقة المحيطة بميدان الملكة نازلي بناحية باب الحديد، ومن هناك هرب إلى الإسكندرية، ومنها - على ظهر سفينة - إلى جزيرة رودس اليونانية حيث نفعته قوة جسمانه ، وبعض مفردات اللغة الإغريقية التي اكتسبها من طول عشرته لليونانيين زملائه بالقاهرة في الحصول على عمل كحمال بميناء الجزيرة. وشهد الميناء نشاطاً واسعاً ، فهبط الجزيرة العشرات من المسافرين كانوا في معظمهم من رجال أجهزة المخابرات التابعة للدول المختلفة،ذلك قبيل سقوطها في أيدي الرايخ الثالث بمعاونة أعداء فتحي التقليديين، الطليان. واندلعت حركة عنيفة للمقاومة الشعبية بالجزيرة ، دعمها الإنجليز والأمريكان. وبقى فتحي هناك حتى شهد جلاء آخر جنود المحور عن رودس اليونانية. وما إن وضعت الحرب أوزارها، وعادت حركة الملاحة في مياه المتوسط، حتى قفل راجعاً. لم يعد إلى القاهرة هذه المرة، بل أوغل جنوبا، إلى "وادي حلفا" حاضرة النوبة ومينائها النيلي الأكبر. وافتتح هناك دكاناً صغيراً لتجارة الأواني المنزلية. لم يختر التقاعد بعيداً خوفاً من بطش

الفاشيين فقد كانت شوكتهم قد كُسرَت تماماً بعد هزيمتهم العنيفة على أيدي الحلفاء، إنما هروباً من القاهرة وذكرياتها الأليمة . وفي استراحته القصيرة بالقاهرة - في طريقه جنوباً - لاحظ الجميع وجود ندبة عميقة تحت عين فتحي اليسرى فتغافلوا عن الاستفسار عنها. لم يخل ذلك الجرح كثيرا بوسامته السمراء ، إنما زادها صرامة ووقارا. وعندما جلس جدي في مواجهته، بدت الندبة مكافئة للحية جدي التي وخطها الشيب مبكراً. وأخذ كل منهما يتأمل العلامة التي جدت في وجه الآخر وكأنما يتأمل السنوات التي مرت. قال له جدي مازحاً عندما علم بمشروع دكان وادي حلفا الذي أزمع افتتاحه: انه اختار المهنة التي تبقيه قريباً من النساء.. وبالفعل سافر فتحي إلى وادي حلفا، وافتتح دكانه، وتزوج من إحدى بنات خؤولته، وأنجب ولداً وفتاة، وبقي هناك حتى عام ١٩٦١عندما غمرت مياه السد العالي مدينة وادي حلفا بأسرها،فاضطر للنزوح جنوباً مرة أخرى مع من نزحوا ..إلى خشم القربة بشرق السودان..إلا إن تلك حكاية أخرى..

المهم كان جدي قد صار متديناً

أنا لم أكن متديناً سوى لإجازة صيفية واحدة، وهي الإجازة التي سبقت انتقالنا من عابدين إلى المعادي . كنت آنذاك بالعاشرة من عمري، وكان الانتقال من حي إلى

آخر، ومن ثم من مدرسة إلى أخرى يعني اختفاء العالم الصغير الذي كنت قد شرعت في تكوينه حول البيت والمدرسة؛ فقضيت تلك الإجازة في المسجد. وبالنسبة لغير معتاديه يتبدى التدين دوماً في المراحل الانتقالية.

إلا إني سرعان ما كونت عالماً جديداً في الحي الجديد، أضيفت إلى مفرداته مستجدات تخص المعادي؛ كالدراجة مثلاً: أمنية لطفل قلب المدينة لا تتحقق إلا في الضواحي. كان الحي كله يركبها، وكان من المعتاد أن ترى السيدات في منتصف العمر ذاهبات إلى سوق الخضار على متون دراجاتهن الرشيقة ذات السلال الأمامية. ذلك المشهد الذي أخذ في الانقراض من منتصف الثمانينيات.

ثم كان أثر الانتقال من مدرسة إلى أخرى. فالمدرسة الفرنسية القديمة بباب اللوق كانت مدرسة متعددة الجنسيات، إذ كانت تستقطب أبناء الجاليات الفرانكفونية من مغاربة وأفارقة إلى جانب طلابها المصريين من مختلف أنحاء القاهرة، فاختلطت فيها اللهجات وألوان الوجوه والثقافات. أما مدرسة المعادي فقد كانت موحدة ثقافياً، إذ كانت شبه قاصرة على أبناء الضاحية، وجلهم من أبناء الشرائح المتقاربة من الطبقة المتوسطة العالية ومن هم دونها بقليل.فكان الانتقال من المناخ المختلط لمدرسة باب اللوق إلى ذلك المناخ الموحد أشبه بخروج

الروح من الطبيعة إلى الاغتراب في التاريخ.. نوع من التعرف على الذات بمعاينتها في سياق مغاير لها .. ثم كان الاغتراب الآخر بالخروج من المعادي إلى الجامعة.. بعد أن تكون قد وجدت الذات، تفقدها مرة أخرى.. بالضياع في غياهب هذا العماء المسمى بجامعة القاهرة بالنسبة لعيون مراهق خجول من الضواحي.. أمم من المستظرفين .. ومن المكتئبين.. ومن المسيسين.. ومن الملتحين.. ومن المثقفين والمتثاقفين .. ومن الشعراء.. ومن طلبة العلم لوجه الله.. ومن الفتيات المحجبات ذوات العيون الحزينة.. وأنصاف العاهرات .. والعاهرات بالفعل.. وقلة من الفتيات الجميلات داخل مؤسسة مبنية على هيراركية الاحتقار؛ فالأساتذة يحتقرون الطلبة، والطلبة المسيسون يحتقرون غيرهم لأنهم قادة وأصحاب سلطة بالقوة، والطلبة المثقفون يحتقرون الجهلاء..طلبة قسم اللغة العربية، ومعظمهم من الجماعات الإسلامية يحتقرون جاهلية القرن العشرين، طلبة أقسام اللغات يحتقرون طلبة الأقسام الأخرى على أسس طبقية.. ونحن في قسم الفلسفة نحتقر كل هؤلاء لأننا أصحاب المعرفة الشاملة.. نسير في الردهات الرخامية للقسم ونردد العبارات الأكثر طنيناً في تاريخ البشرية، ونكتبها على الحوائط بأقلام الفلوماستر السوداء: أنت لا تنزل النهر الواحد مرتين..اعرف نفسك بنفسك.. أفلاطون حبيب إلى قلبي..

العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس.. الإنسان ذئب لأخيه الإنسان.. لقد كف روح العالم عن الوعي بذاته باعتباره وعياً ذاتياً.. وبومة منيرفا التي لا تحلق إلا في لحظات الغروب.. نردد تلك العبارات الرهيبة على تناقضاتها دون أن نعيها. كنا نعيش في دور المتفلسفة، فلا ترانا طوال النهار إلا وفي أيدينا أكواب القهوة المرة، وأثر السهاد هالات حول العيون، والذقون الغضة نابتة في وجوهنا كالشوك.

في بداية مرحلتي الجامعية، كنت قد وصلت إلى نوع من الإيمان الأرسطي؛ بوجود محرك أول خلف الكينونة، وفي خلفية وعيي احتفظت من صفات الله بالمعين، أتذكره في الأزمات. وفي درس الفلسفة الإسلامية ألقى الأستاذ سؤال المتكلم ابن الأيادي عن صفات الله أحقيقة فيه مجاز في الإنسان أم العكس صحيح، ودارت رؤوسنا خلف الإجابة ولم نفلح في العثور عليها. حتى كان امتحان نهاية العام وكنت لم أنم لليلتين قبله.. وعلى القمطر في اللجنة أصبت بما يشبه الهبوط من فرط احتساء القهوة والتدخين.. وتبخرت من ذهني المعلومات التي بت ليلي يقظاً في استذكارها.. حاولت استدعاء التميمة الباقية.. فلم تكن ثمة يد فوق يدي.. اختفت من حولي اللجنة وزملائي الممتحنون وكلية الآداب بل وجامعة القاهرة بأسرها.. ووجدتني أجلس على قمطر معلق في

الهواء.. وصار الامتحان امتحاناً وجودياً.. قلت لأحشد ذهني لاستدعاء الإجابات وقد ذاكرتها بالفعل طوال ليلتين.. وشيئاً فشيئاً عاد لي الهدوء.. واستعدت قدرتي على التركيز فعادت من حولي الأشياء إلى أماكنها .. وتدفقت من قلمي المعلومات على ورقة الأجوبة.. ونجحت في الامتحانين

جيل الستينيات :

الابن الأوسط للجد ولِدَ في أعقاب الطفرة التي انتقل على أثرها إلى مصاف الموظفين.. مباشرة قبيل اندلاع الحرب الكبيرة الثانية، وبالتحديد في العام الثامن والثلاثين من القرن العشرين إبان هجرة فتحي إلى جزيرة رودس. تخرج في كلية الهندسة، جامعة عين شمس، قسم ميكانيكا الإنتاج١٩٦١؛ وتم تكليفه بالعمل في المصانع الحربية، مهندساً من جنود حلم التصنيع الثقيل للعهد الناصري الطوباوي. واضعي أساس غد لن تشرق شمسه إلا على سواد مطبق.وبعد انحسار موجة الهزيمة الطاغية٦٧، ووفاة الأخ المعلم ترك خدمة الحكومة ليجرب حظه في الأعمال الحرة .. ومن إخفاق لآخر، هاجر في منتصف السبعينيات إلى السعودية مع من هاجروا، ليعود مع انتصاف عقد الثمانينيات. وهو الذي رأيناه عائداً في المطار، يدفع أمامه عربة الحقائب في أول صفحات هذا الكتاب.

عادت بي الجولة إلى حيث بدأتها؛ باب اللوق..

ارتفعت الشمس قليلاً واقتربنا من الظهيرة، ألم بأحد ضروسي بدأ في الاستيقاظ، كان داهمني منذ أيام وأفنيت شريطاً من الأقراص المسكنة قبل أن أقرر علاجه جدياً، دخلت صيدلية بميدان الفلكي وابتعت شريطاً جديداً من المسكن؛ كل قرص داخل خليته البلاستيكية يسجنه القصدير.. ضغطت على أحدها فاستجاب وغادر سجنه.

وصلت إلى مقهى الحرية، وأمام النصبة وضعت القرص في فمي وملأت كوب ماء ناظراً بقوة في عيني عامل النصبة ومصطنعاً تلقائية أمامه لئلا يشك في القرص الذي أتعطاه.

وفي الركن المفضل بجوار النافذة التي ترى شارع مظلوم جلست، طلبت قهوة مضبوطة بالرغم من معرفتي بأن القهوة مكروهة عقب المسكنات لخطورة ذلك على جدار المعدة إلا أن شبق أعصابي للكافيين كان أقوى، واليوم حتى الآن لم يبدأ بعد.

أغمضت عيني للحظات أحاول استبطان سريان مفعول المسكن في رحلته حتى أعصاب الضرس المعطوب، وأثناء الإغماضة أتى صالح بالقهوة ووضعها وانصرف، وأفقت على صوت صديقين عاطلين مثلي خارج نافذة الحرية يتهكمان علي: "الفيلسوف قاعد يفكر

سيبوه."قال الآخر: "لأ دا لابس مثقف زي توفيق الحكيم."

وفي المساء، كنت ممدداً على الكرسي الرهيب بعيادة طبيبة الأسنان، أحاول التشاغل عن الألم بالنظر إلى شق نهديها البادي من فتحة قميصها. كانت تعمل مثقابها الدوار في ضرسي التالف.. فتتصاعد في أنفي رائحة برادة العظم والحريق. وبعد أن انتهت من عملها، وبينما تخلع قفازيها البلاستيكيين عن يديها سألتها: لماذا تتلف أسناني الواحد تلو الآخر وأنا شديد العناية بها. أجابت بلهجة قاطعة:.. هي عوامل الوراثة.. وألقت بالقفازات في سلة مهملات تحت قدميها.

٢- الحرب الأخيرة ...
وظلالها الباهتة

وقف الطالب عميل المباحث واضعاً مذياعه الترانزستور على أذنه، بارزاً بين الآلاف التي اصطفت على سلم مبنى الإدارة تحت الأعمدة الدورية الضخمة التي تحمل القبة النحاسية لضريح نهضة مصر: جامعة القاهرة ٩١؛ مظاهرات الطلبة ضد حرب الخليج استمرت أربعة أيام.

الذقون غالبة. سواد اللحى والشعور يطغى على المشهد، عدا بقع لونية مختلفة باختلاف ألوان الملابس. القوام العام للتجمع من الإسلاميين بشعبهم الثلاث: الإخوان المسلمين، الجماعة الإسلامية، فالجهاد أشد الفصائل راديكالية وشعاره بندقيتا كلاشينكوف متقاطعتان تحتهما الآية منقوصة: "وأعدوا.."

فتيات الإسلاميين تشكل خماراتهن كُتلاً لونية صماء لا تتجاوز الأبيض والأسود وبينهما الرمادي، تحتل قطاعاً

غير صغير على يسار المشهد.

أبلى الطلاب اليساريون وطلاب اليمين القومي بلاء حسناً في تجميع حشود الطلبة للمؤتمر الطلابي المعقود بساحة الجامعة، والذي منه انطلقت المظاهرات. قام الطالب اليساري العجوز المهووس بفن المسرح "عز الفيومي" بتمثيل شكل الجرسة الشعبية تهكماً على الأنظمة العربية، وسار بين الكليات حاملاً دفاً ينقر عليه ومن حوله جوقة من زملائه يرددون جميعاً خطبة شديدة السخرية. ومن كلية إلى أخرى كان العدد يتكاثف من حولهم في الطريق إلى المؤتمر.

كلما تصاعدت حدة الغضب وأوشك الزئير أن يفجر جدران الجامعة، أطلق عميل المباحث شائعة مبالغ في لامعقوليتها، متظاهراً بأنها أخبار التقطها لتوه من سياحته في المحطات الأجنبية: ليبيا دخلت الحرب إلى جانب العراق... إيران أيضاً.... صدام بدأ في دك تل أبيب بصواريخ سكود .... وفي لحظة تتحول هتافات السخط إلى صيحات فرح عارم، وتنقشع سحابة.

عندما بدأت المسيرة في الطواف، انتابني شعور عنيف بالوحدة، كأنني استشعر انفصالي للمرة الأولى. ومن بين الزحام برزت الساحرة الشريرة بثينة، وأخذت تكلمني بحماس شديد، لكني لم أكن أستطيع سماع ما تقول نظراً لارتفاع أصوات الهتاف، ولعوامل

داخلية تخصني. فقط كنت أتابع حركات يديها وهي تعلو وتهبط في عصبية شديدة. وبتدقيق النظر، رأيته كامنا تحت حماسها، البرود الملائم لفتاة انتزعوا من بين فخذيها ترانزستور الحياة. أخذت أقاوم رغبة شديدة في أن أحتضنها. ولست أدري لماذا انتابتني تلك الرغبة، ولا لماذا قمعتها.

كان "سيف الدين موزة" عضو فريق الجوالة جالساً بين فتاتين من زميلاته على أحد أرصفة كلية الآداب. الفتاتان متماثلتان نوعاً؛ ترتديان الجينز الأزرق وقمصاناً بيض في محاولة لتوحيد الزي الكشفي. عندما مرت المظاهرة من أمامهم، انتفض سيف الدين واقفاً، فأمسكت به الفتاتان لئلا يلقي بنفسه في التهلكة. صاح منفعلاً: لازم أكون معاهم... كرر موزة الحركة مرتين، وتشبثت به الفتاتان في كلتا المرتين، وبعد المحاولة الثالثة انهار باكياً على كتف إحداهن - الأجمل - التي احتضنت رأسه وأخذت تربت عليها في أمومة. وفي أوقات كهذه يتم التسامح مع تصرفات مماثلة.

ابتدأت قوات الأمن التي تحاصر الجامعة في إطلاق القنابل المسيلة للدموع قرابة الساعة الثانية ظهرا، لتفرق المظاهرة. والقنابل المسيلة للدموع على هيئة عبوات معدنية تشبه إلى حد كبير عبوات المبيد الحشري المنزلي إلا أنها أثقل وزناً، تطلق ببنادق مجهزة لذلك،

فتطير على ارتفاع يقارب الثلاثين متراً متجاوزة المباني والأسوار لتسقط بالحدائق وأفنية الجامعة، تبث غازاتها فتعشى العيون وتلتهب الحلوق والوجوه.

لم أكن أبالي كثيراً للغاز المسيل للدموع قدر ما أصابني هلع من أن تسقط إحدى هذه العبوات المعدنية المنهمرة على رأسي، خاصة لمعرفتي أن إحدى هذه القنابل البريئة قد سقطت على رأس طالبة بجامعة عين شمس في عام ١٩٨٦ أثناء مظاهرات سليمان خاطر فأردتها قتيلة على الفور. فجريت منقلاً عيني بين السماء لتفادي القذائف، والأرض لتلمس الطَريق، وأثناء جريي لمحت من طرف صديقنا "أشرف جزا ر" المصاب بشلل الأطفال، واقعاً على ظهره في حديقة "العشاق" التي تتوسط المسافة بين كليتي الآداب والعلوم السياسية. كان جزار يتحسس الحشائش بيديه المذعورتين باحثاً عن عكازيه الحديديين، بينما قنبلتان تنفثان دخانهما بالقرب منه. وددت مخلصاً لو أهرع لنجدته، لكن خوفي من القنابل التي أخذت تنهمر بغزارة خاصة في تلك الرقعة القريبة من ساحة الجامعة جعلني أواصل الجري. وما يعوزه البيت يحرم على الجامع في أغلب الأحيان.

كان فراري قد وصل بي إلى صحن كلية التجارة، وبجوار الأكشاك الخشبية للبوفيه جلست على الرصيف متهالكاً، وبعد ثوان ظهر أمامي صديقي الذي

(لغرض في نفسي) أسميه "يوحنا المشاء". كان يوحنا ملتهب الوجه من أثر القنابل يبحث عبثا في ما حول البوفيه الذي أغلق عماله منافذه وفروا هاربين عن قبضة ماء يغسل بها وجهه الملتهب. لم يجد المسكين سوى برج أصفر من صناديق ماء الشويبس الغازي قد اصطفت فوق بعضها. استل يوحنا منها زجاجتين وهشمهما على حجر الرصيف وأخذ يغسل وجهه بمائهما الفوار. فاغرا فمي كنت أراقبه مشدوهاً عندما أفقت على قهقهة عالية تصدر من صديقنا "طارق الأسيوطي" الذي انشقت الأرض عنه. كان طارق مستمراً في ضحكته حتى أن كلماته خرجت محشرجة عندما سب الدين مازحاً ليوحنا وأمه وقال أن الغاز المسيل للدموع أرحم مائة مرة من غسيل الوجه بماء شويبس البرتقال.

لم يكد طارق يكمل دعاباته حتى سقطت تحت قدمه قنبلة جديدة. مرة أخرى عاودني الذعر الذي لم تستطع منعه الضحكات. وأخذنا نبحث عن مكان يعصمنا من يد الحكومة الطائلة، حتى هدانا تفكيرنا الأحمق إلى فكرة مؤداها: أن خير مكان للاختباء هو أقرب مكان من نقطة إطلاق القذائف... خط المواجهة. فقفرنا التمترس خلف سور الجامعة الشمالي المواجه لطابور الأمن المركزي؛ وسور الجامعة عبارة عن حائط من الحجر يرتفع حتى كتف الإنسان، يعلوه سياج من أسياخ حديد مطلية باللون

الأخضر. وعندما قبعنا تحته نحن الثلاثة نشبت معركة كلامية بين طارق ويوحنا حول حرب الخليج، شبه طارق الحرب فيها بالمعركة بين إسبرطة و أثينا. وعندما سأله يوحنا عن أيهما تكون الكويت وأيهما العراق، وعلى أي شيء يستند في تشبيهه... قال طارق إن العراق هي إسبرطة لأن أشاوسها محاربون أولو بأس كأهل إسبرطة، أما الكويت فهي بالطبع أثينا لأنها صارت مأوى فلاسفة وحكماء العرب المحدثين بداية من عبد الرحمن بدوي وزكي محمود إلى فؤاد زكريا وعبد الفتاح إمام .. وأخذ طارق في إحصاء أساتذة الفلسفة، فقلت مالي وهذا الحوار السخيف، وشخصت ببصري إلى السماء أتابع انفلات مذنبات الغاز فوقنا.لحظات وبوغت بطارق يقفز ليعتلي الجزء الحجري من السور، تذكرت أنه لم يكن قد نسي أن يتزود لمثل هذا اليوم ببرطمان كامل من أقراص الباركينول المسببة للهلوسة. وقف طارق فوق الجزء الحجري من السور متعلقاً بالقضبان الحديدية. ومن موقعنا طلبنا منه - يوحنا وأنا - أن يصف لنا ما يدور خارج الأسوار... أخذ طارق يروي لنا ما يراه؛ ولاحظت أن صوته كان أعلى مما ينبغي، كان يصرخ تقريباً. قال إنه يرى ضابطاً ذا رتبة كبيرة يخفي وجهه بنظارة سوداء وجهاز ووكي توكي موصول مباشرة بغرفة العمليات - اندهشت لمعرفته أن الضابط يكلم غرفة العمليات - وقال إنه يرى صفاً طويلاً من عساكر الأمن

المركزي يقف على رصيف الوسط بشارع بين السرايات... وإنهم بملابسهم السوداء يشبهون قطع الشطرنج، ثم أخذ يصرخ... إنهم يسيحون كالشمع على الرصيف.... ثم توقف طارق برهة، ونظر إلينا وقد امتقع وجهه وقال إن الضابط قد أخرج طبنجته من جرابها وأطلق الرصاص على رأسه وسقط غارقاً في دمائه بين الشموع السوداء المتبقية من انصهار العساكر. عندئذ أدركنا - يوحنا وأنا - أن الباركينول يعمل بكامل كفاءته، وأن طارق يهذي بغير حساب. وفي نفس اللحظة أصابت طارق رصاصة مطاطية في فخذه - حقيقة هذه المرة - نقلناه على إثرها إلى مستشفى الطلبة للعلاج.

لم يكن "طارق الأسيوطي" هو الاسم الحقيقي لصديقنا هذا، إنما فضلت أن أطلقه عليه لأنه يتشابه في جرسه مع اسم إرهابي قديم باع صديقه المهم نظير أربع قطع من الفضة. بالطبع لم يبع طارق أيا من أصدقائه، وإنما كان قد عبر عن شيء مماثل في قصيدة قصيرة كتبها على غرار الهايكو الياباني، قال فيها: "... لست أدري، لماذا لم يخلق الله الأصدقاء كقطع النقود..." واحتفي كثيراً في الأوساط الأدبية بالجامعة بتلك الأبيات القليلة التي كتبها طارق، وبدا كما لو كان شاعراً مهماً يقلب القيم الأخلاقية رأساً على عقب.

المهم أن صديقنا طارق الأسيوطي في اليوم التالي

من المظاهرات كان قد صار بطلاً محمولاً على الأكتاف، وبنطلونه الجينز الممزق من عند الركبة حتى أسفل الساق يعرض جزءاً من فخذه المصاب الملفوف في الشاش الكافوري. لم يكن يردد الهتافات، فقط كان يمسك صامتاً بقنبلة دخان فارغة، يلوح بها يميناً ويساراً ومن حوله الهتافات يختلط فيها الإسلام، بالعراق، بالفقراء، بارجعوا الجيش المصري، بسبب الدولة والمباحث وأمريكا واسرائيل.

يوحنا المشاء كان قد انخرط بكامله في الأحداث وأصبحت لا أراه أثناء هيامي على وجهي بين أرجاء الجامعة. وفي اليوم الثالث ظهر يوحنا في منتصف النهار وطلب مني أن نستبدل جاكتاتنا، لأن أجهزة الأمن رصدت جاكتته ذات اللون المميز وقمنا بالفعل باستبدال الجاكتات.

في اليوم الأخير طلبت من يوحنا أن أسترد سترتي. فردها لي غارقة في الدماء. لم يكن بيوحنا أي خدش، وحتى الآن لم أعرف دماء من التي اصطبغت بها جاكتتي.

من اليوم الأول مات طالب من كلية الحقوق اسمه "خالد عبد العزيز الوقاد"، إذ اشتعلت المعركة ليلاً بين الطلبة المقيمين بالمدينة الجامعية وأفراد الأمن المطوقين للسور الشمالي للجامعة المتاخم لشارع بين السرايات

والمواجه للمدينة الجامعية. كان الفتى قد هبط ببيجامته ليلاً ليشتري الشاي من كشك صغير بباب المدينة فأصابته الطلقة القاضية حية هذه المرة، إذ أن المعركة في الليل أكثر شراسة لأنها تدور في لا وعي التاريخ.

بعد أربع سنوات من تلك الأحداث، كنت على باب معسكر "خطوة السير" أقف منتظراً دوري لأحصل على شهادة إعفائي من الخدمة العسكرية. التقيت شاباً نحيلاً ذا لحية خفيفة، أعلى جبهته زبيبة آخذة في التكون مما يدل على حداثته في المواظبة على الصلاة. كان يهم بالولوج من البوابة داخلاً المعسكر مصطحباً شاباً آخر بدا كما لو كان أخاه الصغير، عندما أوقفه جندي الأمن الواقف بالبوابة وقال له أن الدخول مسموح به فقط لمن هم مطلوبون للتجنيد. قال الشاب ذو اللحية لجندي الأمن إنه عسكري مثله.. أشار جندي الأمن باستهتار شديد إلى لحية الآخر قائلاً: إزاي؟ وأدار وجهه إلى الجهة الأخرى ينفذ تعليمات الأمن.

عندما جمعنا الانتظار على البوابة، بدأ يحكي عن أيام خدمته التي قضاها مع الكتائب المصرية التي حاربت بجانب قوات التحالف الدولي في عاصفة الصحراء.. وحكى إنه أُلحق كسائق على قوات الجيش السعودي، وكيف أن شظية أصابت ساقه عاد بعدها إلى القاهرة ليرقد في المستشفى العسكري بلا جدوى من علاج. وعندما

انتهت مدة خدمته العسكرية خرج مِن المستشـــفى بحالتـــه (كما كانت) وكاد أن يصير مشلولا...

نصحه أبناء الحلال أن يطلب العــــلاج علـــى نفقـــة الحكومة السعودية التي أصيب بجبهتها...فبعث برقية إلى الملك فهد أخبره فيها بحكايته...فاستدعاه الملــــك للعــلاج علـــى نفقـــة المملكـــة بمستشـــفيات الريــــاض .. إلا أن الاستدعاء وصله على عنوانه لــدى الجيــش المصـــري، فأرسله الجيش المصري إلى الرياض تحت ستار مهمـــــة عسكرية، ليتسلمه الجيش السعودي فمستشفيات الريـــــاض الفاخرة.. وها هو يسير على قدميه مرة أخرى بالرغم من المسمار البلاتيني الذي يقيم ساقه...

قال إنه عولج من الباطن كما حارب من الباطن فــــي حفر الـــ... ها ها ها ها

كانت رمال صحراء خطوة السير تشرب قهقهاته كما اعتادت رمال أي صحراء أن تشرب الدم والدموع.

٣- جدول اللامعقول

أو المعادي صيف ٨٨

تحتوي كل ١٠ ملليلتر على:

كلوروفينرامين ماليات	٣ مجم
فينيل أفرين - أيدروكلوريد	٥ مجم
أفدرين - أيدروكلوريد	٥ مجم
دكستروميثروفان - هيدرو بروميد	١٥ مجم

رفع الدكتور موفق صاحب صيدلية الرحمة حاجبيه إلى أعلى بعد أن قرأ النشرة الداخلية للتوسيفان-ن الذي نطلق عليه اختصاراً "N"، وطواها داخل الغلاف الكرتوني، وقال: ست زجاجات مرة واحدة لابد أن عندكم عزومة الليلة - لم يكن يعرف أن ستة هو عددنا نحن؛ وكنت المتطوع اليوم للتعامل معه - وفي الخارج كانت خمسة هياكل عظمية تقبع بين مستند على سيارة واقفة، وجالس على الرصيف، ومتلفت حوله لا يعرف ما الذي يفعله بجسده، في انتظار إعلان نتيجة المقامرة بالتعامل مع صيدلي جديد، ومدى استعداده لابتلاع الطعم، أو التواطؤ، أو رفضه كلية للصفقة فنبدأ

رحلة العناء مع صيدليات أخرى...

وعندما خرجت حاملاً الكيس البلاستيكي حاوياً الزجاجات الست انتصبت الخمسة هياكل وبعثت أجساداً بعد أن دبت فيها الروح.

الزجاج العسلي يشف عن المشروب الأحمر .. الأكف العرقانة من الإجهاد العصبي تحتضن الغطاء الصفيحي للفوهة وتتعثر عدة مرات قبل أن تفلح في إحكام القبضة حوله لانتزاعه في حركته اللولبية بفعل انزلاق العرق فوق الصفيح الأملس.

ويتم التجرع دفعة واحدة (ويرمي كل منا بزجاجته في جوانب الطريق). وفي آخر شارع ١٥ (الطريق المار بين الديرين) يقع منزل محمود بعد دير النوتردام ديزابوتر مباشرة وأمام سور المعهد الإكليريكي وحديقته الشاسعة التي تنازل الرهبان عن ملعب كرة القدم الذي بها لصالح بناء نزل للآباء المسنين، وتماماً عند خط التقاء حي المعادي جنوباً بحي طرة.

قام آل محمود بتجديد سور المنزل (باستبدال خمائل الشجر بسور من الحجر الأبيض) فتخلف عن عملية البناء تل رملي صغير تكوم بجوار السور. وبوضع جذع شجرة مقطوع أمام التل الرملي نكون قد حصلنا على مكان مهيأ لجلوس ستة فتيان تتراوح أعمارهم بين التاسعة عشرة والثانية والعشرين.

لن تحتاج إلى عظيم مجهود لتتعرف فيهم على فريق كرة الـطائرة القديم، مع استبدال اثنين من لاعبيه، تفوق أحدهما ودخل كلية الطب، فأبعدته صرامة الدراسة عن رفاقٍ المدرسة التالفين كما كان يسمينا إن مازحاً أو جاداً، بينما التحق الآخر بكلية الشرطة حيث كان يقضي ثلاثة أرباع العام و يخرج من هناك بشخصية مختلفة في كل مرة بمقدار شعوره بالسلطة الذي كان يتفاقم من إجازة لأخرى .

والN حتى يأتي مفعوله يستغرق من ٢٠ إلى ٤٠ دقيقة. يبقى أربعة منا على (الرملة) كما صار اسمٍ المستقر، ويقوم متطوعان آخران بقطع الرحلة سيراً على الأقدام حتى صحراء كوتسيكا لشِراء الحشيش من أم أمل بعد الإفلاح في تجميع ١٥ جنيهاً هي سعر قرش الحشيش آنذاك من الملاليم التي بجيوبنا

لكي نصل إلى صحراء كوتسيكا يتوجب علينا اجتياز حوش مخزن القطارات المجاور لمحطة "طرة البلد" حيث يلتقي خط مترو حلوان بخط قطار المحاجر القادم من العباسية عبر صحراء الأوتوستراد والذي ينحدر من خلف سور المعهد الإكليريكي. وحوش مخزن القطارات هو مساحة هائلة من الأرض تتقاطعٍ فيها متاهات من قضبان السكك الحديدية، وحيث كهنت العشرات من القطارات القديمة. ذلك الفضاء كان مرتعاً

رحباً للثعالب والكلاب الضالة، واتخذت فيه القطارات المكهنة مساكن للجيل الأول من أطفال الشوارع الذين شهدنا تنامي أعدادهم يوماً بعد يوم خلال رحلاتنا عبر هذا الخلاء. وكثيراً ما كنا نراهم وقد جلسوا لتقسيم الغنائم التي سرقوها أو تسولوها. وذات مرة رأيناهم وقد تحلقوا حول وليمة كبيرة من كباب اللحم. ولم ينسوا في غمار الأكل والتلمظ أن يستبقوا لعامل البلوك رغيفا عامراً بقطع الكباب.قال الذي رأى نصف الكوب ملآناً: إنما هو التضامن مع أخيهم البروليتاري،فقال الذي رآه فارغاً : بل هي الإتاوة يا شقيق.

تبيع أم أمل صنفين من الحشيش: الأول هبو شعبي للجوزة تلفه في ورق سوليفان أحمر، والثاني حشيش زيت يناسب لف السجائر وتلفه في ورق سوليفان أصفر، ويزيد ثمن القرش من النوع الثاني جنيهين عن الصنف الأول. والصنف الأول من ماركة (خالص مع الشكر) والثاني من ماركة (رضاك يارب). نشتري قرشاً أو نصف القرش من رضاك يارب لطيب طعمه ورائحته. وعندما يعود الرسولان بالبضاعة يكون مفعول الN في بدايته، تلك النقطة التي تتمكن القشعريرة فيها من رأس المرء وتعلوها على هيئة إكليل ينهش الدماغ بتنميل لذيذ من الداخل.

يبدأ نادر في فرك الحشيش على دخان السجائر

المفروك سلفًا في طبق استحضره محمــود مــن شــرفته وكأنما رقده دائما لذلك الغرض، الرحلة عند نقطة البداية..

كانت أمسية مماثلة لهذه عندما لمحنا نحن الستة مــن موقعنا على الرملة عصام ناجي قادماً،راكباً على دراجــة أخيه الصغير، وكان يبدو مضحكا بجسمه الضخم الـــذي يتهدل من فوق الدراجة الطفولية مقاس ٢٤، وكان بالنسبة لنا ضيفاً نصف مرغوب فيه، والنصف الآخر للمودة التي نكنها جميعاً له – ويبادلنا إياها دون شك في ذلك – إلا أنه مع ابتعاده عنا في عالم الاهتمامات صار أيضاً في عــداد الغرباء، وبقت تلك المودة متضمنة في ذاكــرة الصداقــة الحية تحفظ أصداءها جدران المدرسة التي تقع في مكــان وزمان غير بعيدين عن موقعنا في المكان والزمان.

عندما وصل عصام تبدد شبح الوحشة التي أسقطناها عليــه مســبقًا بمجــرد ظهــوره عنــد رأس الشـــارع. طرح عصام الدراجة الصغيرة جانباً على الرملة وانتصب واقفا يتصبب عرقا ولم ينتظر أن يلتقط أنفاسه وقبـــل أن يبادرنا السلام أشعل سيجارة: أزيكو يامجانين...

أعطاه نادر سيجارة ملفوفة وقال له تفضل يا معلـــم، فرمى عصام سيجارته التي أشعلها لتوه وأشعل الســيجارة المحشوة، وأخذ في تدخينها بمفرده كاسرا بذلـــك عرفنـــا بالتناوب في تدخين السيجارة الملفوفـــة جميعـــاً وعلـــى التوالي. دخل عصام في صلب موضوعه مباشرة وقـــال

كمن يلقي بمفاجأة سارة "إيه رأيكم في يوم على البحر مجانا"..؟

بدت لنا الفكرة شديدة الغرابة إلا أنه عندما أخذ في الشرح راقت لنا، قال عصام إنه مسافر في الصباح في مهمة للشركة التي يعمل بها إلى العين السخنة على شاطئ البحر الأحمر وإنه سيكون بمفرده مع سائق الشركة في ميكروباسها، وإنه بإمكاننا الذهاب معه نحن الستة وقضاء اليوم على الشاطئ. أمام عرض مغر كهذا لم نستطع التراجع. وقال عصام إن على كل منا أن يأتي بملابس البحر من منزله وبعض الأطعمة الخفيفة ما أمكن ذلك.

وأنهى عصام السيجارة التي أخذها من نادر وقال إنه سيمر علينا بنفس المكان في السادسة صباحا بميكروباس الشركة، وسحب الدراجة وامتطاها ومرة أخرى بدا مترهلاً مثيرا للضحك وهو يبتعد في عمق الشارع تحت أضواء مصابيح شارع ١٥.

بقت مشكلة أرقتنا، وهي كيفية تأمين تموين الرحلة من المخدرات. لم يكن معنا سوى قدر ضئيل من النقود، كما أن الصيدليات المتواطئة لابد وقد أغلقت أبوابها. صيدلية الخدمة الليلية الوحيدة يتمتع صاحبها والعاملون فيها بنزاهة تكفي كل صيادلة الحي الآخرين، وهو يعرف جيدا كصيدلي مخضرم ألاعيب الشباب من أمثالنا

في التحايل على الدماغ.

قال شريف الذي كان قد وصل منذ أيام من الأقصر حيث يدرس الفندقة بأحدِ المعاهد أنه عرف ضمن ما عرف هناك عقاراً غريبًا يستخدم أصلاً لعلاج داء باركينسون أو الشلل الرعاش: العقار اسمه باركينول وقال إنه يسبب هلاوس شديدة الإيهام تقارب ما نسمعه عن تأثير الـ .L.S.D، لذا يجب التعامل معه بحرص شديد، وهو بالإضافة إلى ذلك رخيص السعرِ بدرجةٍ لا تصدق إذ أن البرطمان منه لا يتجاوز ثمنه جنيها واحداً،وهو يحتوي على قدر من الأقراص يكفي لغمرنا في الأحلام لمدة أيام وأيام.

كانت الفكرة رائعة إذ أن ذلك العقار لم يكن قد عُرِف بعد على مستوى المتعاطين ولم يكن مدرجا بجدول المخدرات والعقاقير المحظور بيعها دون تذكرة طبية، مما يسهل عملية خداع الدكتور التقي صاحب صيدلية الخدمة الليلية، فعقدنا العزم، وكالعادة قسمنا المهام، فذهب منا فريق وبقى فريق.

لاحت في الأفق بعثة الشراء العائدة من صيدلية الخدمة الليلية، ورأينا شريف – و كان أحد المبعوثين – عندما اقتربت خيالاتهم يلقي بشيء في الهواء ويلقفه في كفه مرة أخرى، وعندما اقترب أكثر عرفنا في ذلك الشيء البرطمان السحري، هنأنا أنفسنا على نجاح المقامرة

وعرفنا أن شريف لابد وقد دبر فيلمًا محترمًا كي يحتال على الصيدلي المحنك. بعد هذا كان أمر الرحلة قد صار هينا.

قبل موعد وصول عصام بحوالي ساعتين كنا قد اجتمعنا بمكاننا على أهبة الاستعداد. وتناقشنا طويلاً حول توقيت بدء مغامرة تجريب الباركينول. فاز المتعجلون في هذا النقاش، وفي التو كان محمود قد هبط من شرفته حاملاً زجاجة مملوءة بالماء البارد، وابتلع كل منا كمية الأقراص التي عينها لنا شريف بوصفه الخبير المجرب.

وأقراص الباركينول بيضاء صغيرة جدًا في الحجم، وصغرها يضفي عليها براءة كاذبة. كنا قد ابتلعنا الجرعة التي عينها شريف، ومضت ساعة أو يزيد دون أن نستشعر أي تأثير، فشككنا في معلومات شريف وابتلع كل منا المزيد من الأقراص الصغيرة ...

بعد ساعة أخرى كانت السيارة الميكروباص تقطع الصحراء على طريق البحر الأحمر، مخلفة وراءها ضاحية المعادي، ومنطقة القطامية. في المقدمة، بجوار السائق جلس عصام ناجي منتفخ العينين من نوم قصير، يشرب شايًا في كوب بلاستيكي هو في الأصل غطاء لترموس يحفظ الشاي ساخنا وضعه أمامه على التابلوه، السائق كان يدخن.

توزع جلوسنا نحن الستة على المقاعد الإثنى عشر للحافلة الصغيرة، فتمدد اثنان على نصيبهما من المقاعد وتجاور زوجان.

كنت مسنداً رأسي إلى زجاج النافذة التي أجلس بجوارها، استمتع بدغدغة أزيز اهتزاز العربة الساري من الزجاج إلى رأسي وأتابع عبر النافذة تلال الرمال الصغيرة على جانب الطريق تعلو وتهبط.. تعلو.. وتهبط.

في هذه الساعة المبكرة كانت الشمس تضرب واجهة السيارة إذ كنا نتقدم في اتجاه الشرق الأصلي. ثقلتِ الشمس على عيني فغفوت لثوان معدودات أو خُيِلَ إلي ذلك.

وعندما أفقت تيقنت من حدة الشمس التي لا تزال في أولى ساعات شروقها، بدت لي تلك الرحلة التي لم تكد أن تبدأ كما لو كانت رحلة لا نهاية لها، وحملت هم القيظ الشديد على رمال الشاطئ، و ملوحة ماء البحر الأحمر الشديدة التي تدمي العيون، والإرهاق الذي سنعانيه من جراء قضاء يومين دون نوم... تساءلت: مالنا نحن بالشواطئ والاستحمام؟ ألسنا ستة من متعاطي المخدرات ننام النهار بطوله ونقضي الليل بين مجلس الرملة بجوار منزل محمود وصيدلية الرحمة، ندور مبكرا في دائرة اليأس ... وأي يأس؟ رنت في رأسي كلمة يأس... يأس... يأس.... وصار لسينها هسيس يتردد

كصدى لانهائي، كلما أوشك على الإذواء رنت الكلمة من جديدٍ وهسهست السين، صارت الكلمة تحتل رأسي بكاملها تعرض علي حروفها الثلاثة مفككةً ثم متصلة، ويستمر صداها يدوي حتى خلتني أقرأ كتاباً عن اليأس.

شعرت بحلقي جافاً كعصا، قلت: لأضع الكتاب جانباً وآتي بزجاجة ماء بارد من الثلاجة. لحظتها فقط تبينت مرة أخرى أننا في علبة حديدية تخترق الصحراء الشرقية في اتجاه البحر.

كان ضوء النهار يضفي جواً مرَّضياً داخل السيارة، وكنت فجأة ألعب الشطرنج مع أحد الأصدقاء في الحيز الضيق لمقاعد الميكروباص، على رقعة صغيرة ممغنطة، بدت لي المباراة غير مفهومة على الإطلاق، ولم أعرف متى بدأت ولا أينا يلعب بأي لون، كما إنني لم أستطع تحديد خصمي بدقة هل كان محمود أم مختار؟ أمسكت قطعة من الشطرنج وأطبقت عليها براحة كفي. كان ملمسها مقززاً كريهاً، وحتى الآن لا أدري كيف يمكن لشيء عادي كقطعة شطرنج أن يكون له ذلك الملمس البشع. ألقيت بها مفزوعاً على الرقعة الصغيرة ذات السطح المعدني الممغنط والقاعدة الخشبية، فأحدث صوت سقوطها دوياً رهيباً. وتأرجحت جيئةً وذهاباً بين القطع الأخرى المنتصبة. عندها رفعت رأسي إلى صديقي الذي يلاعبني فالتفت بهدوء نحو النافذة التي بجواره

وانخرط في بكاء لم أعرف له سبباً. وفي الخارج كانت تلال الرمال لا تزال تعلو وتهبط. وعندما نظرت إلى مقدمة العربة رأيت جانباً من وجه عصام ناجي وقد وضع على عينيه نظارة سوداء. ودخان السيجارة التي لا تفارقه يتصاعد من فمه ومنخاره بينما انخرط هو والسائق في حديث لم أتبينه .

وعندما وصلنا إلى شاطئ البحر نزلنا نحن الستة من السيارة كمن يهبطون من مركبة فضائية إلى سطح القمر، في حالة انعدام تام للتوازن . كان موطئ الأرض تحت أقدامنا كالعهن المنفوش.

عندما انشق ذلك الأخدود العظيم الذي هو البحر الأحمر نتأت على جانبيه سلسلة من الجبال الملتهبة تصليها الشمس فتبدو تحتها حمراء بصخورها. وطريق الأسفلت الذي جئنا عليه، والذي يمتد بمحاذاة اليم جنوباً حتى القصير وما يليها يفصل بين الشاطئ وتلك الجبال، وكنت أرقب فوهة سوداء مفغورة على جسد أحد تلك الجبال عندما أشرأب من داخلها... خلته في البداية كلباً. كان أغبر تبرقش جسمه الضخم بقاع سوداء. وعندما لاحظت ضخامة خطمه واعوجاج ساقيه الخلفيتين تعرفته... انحدر برشاقة نحو قدم الجبل وعبر الطريق وتقدم نحو جثة حمار ميت رقدت على ظهرها منتفخة وقد تشنجت أطرافها الأربعة نحو السماء- أين رأيت هذه

الجيفة من قبل؟ دب الضبع خطمه في البطن المنتفخ وأعمل فكه بأسنانه الحادة ونزع نسيرة كبيرة من اللحم بكل ما في فكه ورقبته من عضلات فتدفق الدم المتخثر بين شدقيه وأغرق شعر رقبته الأغبر بينما غابت عيناه في سعار نشوان... كنت مأخوذاً بالمشهد حتى أنني لم ألتفت لقطيع من أبناء عمومته يهبطون من نفس الكهف... أخذوا يتقدمون ببطء وثقة ورأيتهم يغفلون وليمة الحمار ويتقدمون ناحيتنا... كانوا يسيرون نحونا وقد مالت جذوعهم كما لو كانت أرجلهم الخلفية تسابق الأمامية... اقتربت من النار التي كنا قد أضرمناها للشواء... وأخذت غصناً خشبياً مشتعلاً استعداداً لهم... وقد تكأكأ الرفاق وظهورهم إلى ظهور بعضهم البعض وبقي السائق على حاله والسيجارة لا تفارق شفتيه وقال لا تخافوا.. هذه الحيوانات لا تهاجم الأحياء. قال قائل منا من أدراك أننا أحياء. عندها كانت الضباع قد أحكمت الحلقة حولنا وأخذت تزمجر من بين أنيابها، سمعت جملة، وخلت السائق يلقي بتحذير آخر.التفت إلى السائق أسأله إن كان قد قال شيئا، فقال بابتسامة ساخرة إنه لم يفتح فاه. وعندما عادت رأسي إلى موضعها لم أجد أثراً للحيوانات... التفت إليه مرة أخرى وسألته: أين الحمار الميت؟ رد بنفس الابتسامة: في دماغك...

أذكر أيضاً أقراص الهامبورجر المجمدة وقد ذاب

ثلجها واختلط بللها بالرمال، ومذاق الخبز الذي حاولت أن أقضمه وابتلعته بصعوبة كأنني آكل قطنا جافا. ولست أعلم كيف قضينا اليوم على الشاطئ. أذكر إني كنت مستلقيا في ظل السيارة أرى الشمس تهبط عبر الأفق في حركة سريعة. وكنت لا أستطيع الكف عن التحديق في ذلك القرص الأحمر الذي خلف على عيني شعورا بعد برهة باللون الأخضر ثم سمعت صفيرا في أذني استمر بعد ذلك إلى نهاية الرحلة.

كان الأصدقاء نادر ومحمود وشريف ومختار وهاني كل منخرط في الأكروبات الخاص به. وكان السائق يتفرج علينا كمن يطالع مهزلة لا يستطيع فهمها. عصام ناجي وحده استمتع بهذه الرحلة سباحة وغطسا وطعاما.

وفي منتصف النهار وصلت إلى الشاطئ الخالي إلا منا سيارة أخرى كانت تقل مجموعة من الشباب الأسيويين، ربما كانوا من الفليبينين على الأرجح. وسرعان ما خلعوا ملابسهم و ارتدوا ملابس العوم، وشرعنا كالمشدوهين نراقب الفتيات وهن يسبحن كالقراميط في الماء الهادئ، أذكر أن السائق قطع الصمت الذي لا تجرحه سوى الأصوات البعيدة للشبان والفتيات الفلبينيين وهم يسبحون. وقال: إن هؤلاء الناس الفليبنيين يعرفون كيف ينزهون أنفسهم ويستمتعون بالوقت، ولو كانوا يعملون في المهن الحقيرة كالخدمة

في البيوت.

وكانت التيمات المتكررة للهلاوس يوم ذاك هي تخيل المرء أن ثمة سيجارة تلازم أصابعه، وعندما فجأة تنتبه أن أصابعك فارغة تتلفت حولك وتقوم من مكانك. تنفض ملابسك وتنظر إلى موضع مقعدك بحثًا عن السيجارة الوهمية. وحينئذ ستصطدم نظرتك الحائرة بابتسامات الآخرين الذين سبق لهم السقوط في شرك السيجارة المتكرر.

أيضًا للزواحف والحشرات نصيب في خيالاتك المحمومة، بين الفينة والأخرى يصرخ أحدهم مفزوعًا ويدفع عن جسده ثعبانًا أو حشرات خيل إليه أنها تزحف على جسده، وتيمة الحشرات تلك هي التي حدت ببعض متعاطي الباركينول من الحرفيين - وذلك عندما تفشى استخدامه في أوساطهم أوائل التسعينيات - أن يطلقوا عليه برشامة الصراصير وكانوا يقولون تعال نصرصر أي تعال نتعاطى الباركينول. تمامًا كما أطلقوا على الكوميتال الـ "جماجم". وكما أطلقوا على مخدر الأتيفان القوي "قطر الصعيد" استنادًا إلى الحادثة الشهيرة التي خدر فيها أحد الصعايدة ركاب عربة قطار بأكملها عن طريق وضعه الأتيفان في جركن لماء الشراب، وسقايته لهم تطوعًا وثوابًا أثناء الرحلة، ثم سرقته لمتعلقاتهم بينما هم يأكلون الأرز باللبن مع ملاك الأتيفان الأزرق .

ثم التف الثعبان الضخم على الساق لينفث سمه الذي هو الترياق بألف ولام التعريف في كأس العالم..في كأس أم العالم... الذي يطفو على بحيرة من العقاقير. كانت تلك الفترة بنهاية الثمانينيات هي العصر الذهبي لمخدرات الكيمياء، كانت دولة الحشيش في طريقها إلى الأفول فيما عرف بأزمة الحشيش الكبرى والتي على إثرها تم تدويل البانجو كمخدر محلي، فتم توفير ملايين الدولارات التي كانت تبدد خارج الحدود جلبًا للحشيش، وبذا ساهمت الأعشاب الخضراء - بشكل أو بآخر - في حركة الإصلاح الاقتصادي التي بدأت مع عقد التسعينيات وانتهت بنهايته.

ومثلما تغمض عينًا ثم تفتحها، انقضى نهارنا على البحر الأحمر، وعندما هبط الظلام بدأت استعداداتنا للرحيل. كان يخامرنا جميعًا شعور أشبه بالإثم؛ وربما نتج ذلك عن تداعيات عقولنا الباطنة التي استغرقت سحابة النهار، وجعلت من ذلك الشاطئ الخاوي مسرحًا لها. وربما شكل وجود عصام ناجي والسائق نوعًا من كسر حلقة الأوهام التي درنا فيها طوال النهار. رأينا المجازر والدماء، والسفاحات والمحارم وكل ما نسيته الحياة ينداح أمامنا. وفي طريق العودة، وبينما يقطع الميكروباص الطريق المظلم، عم الصمت. كان معظمنا قد أفاق أو كاد... وعندما استغاث شريف من ركنه أقصى

العربة هرعنا إليه. كان يتوهم أنه ينزف من أنفه، إلا أننا طمأناه أنه لا يزال يهذي، ولا عجب فقد كان أكثرنا إفراطًا في ابتلاع الحبوب....

إذن فقد عُدنا من الرحلة.. إذن فقد عُدت من رحلتِي إلى تلك الرحلة. ها نحن لا نزال على الرملة، وقد دخنا ما يقرب على نصف القرش الذي أتينا به. كان الروك يتدفق هادرًا من كاسيت شريف النقال الذي وضعناه أعلى السور الأبيض لبيت محمود فوق تل الرمال الصغير... نستمع إلى "روني جيمس ديو" الإنجليزي المشرد بين فرق الروك، يغني عن الليل... الليل الذي هو أشد ظلامًا... عن الواقفين بنهايات الصفوف... واللعنة التي ضربت العالم، والشعوب التي تصلي لتنقضي أيامها... وعن العوالم التي تسيل بها حياتك أمام عينيك. إيقاع طبوله - رغم عنفها الذي يعكس غضبًا حقيقيًا - شديد الانتظام، فهو رجل صاحب تقليد موسيقي قديم، كان لا يزال حتى نهاية الثمانينيات متمسكا به.

كانت هدأة بين أغنيتين، أو بين انتهاء الشريط والتكاسل عن قلبه على وجهه الآخر، أو المغامرة بتغييره ومن ثم تغيير المزاج السائد.. وقع الصمت عنيف بعد الموسيقى العنيفة.. لحظات تمر حتى نتبين صرير الجنادب ونقيق الضفادع. كان الشارع غارقًا في ظلامه، والفوانيس الكابية تزيده غموضًا وقد امتد أمامنا

صامتًا يحيطه جلال الدير ومعهد اللاهوت اللذين يؤطران جانبيه بأسوارهما المنيفة وصفا أشجار السرو والكافور اللذان يوازيان الأسوار. وفي عمق الصمت جاءنا صوت حاد لصرخة نسائية من عند نهاية سور الدير. فسرعان ما قمنا لنستطلع الأمر. وهناك عند انعطاف السور كانت تقف سيارة بيجو ٣٠٥ وبجوارها يقف شاب وقد اشتبك مع عسكري عرفنا فيه جنديا من جنود حراسة الدير، وبداخل السيارة كانت تجلس فتاة تنتحب وقد تدلى ظهر المقعد الخاص بها حتى استحال سريرا. رأينا ذلك على ضوء صالون السيارة المنار بسبب بابها المفتوح الذي يقف بجواره الشاب المشتبك مع العسكري. ولم نشك أن الفتاة هي نفسها صاحبة الصرخة... وبدا لنا الأمر واضحا إلا أننا تدخلنا فسألنا العسكري الذي كنا نعرفه بحكم الجوار عن الأمر. فقال إنه ضبط الأفندي راكبا فوق الهانم وإنه حرز هذا ولوح بقطعة قماش مثلثة لم تكن سوى اللباس الداخلي للفتاة المنتحبة، وأقسم العسكري أغلظ الإيمان أن يسلمهم لأول دورية راكبة تمر. وكان الشاب صاحب السيارة يحاول أن يتظاهر بأنه يملك سلطة تفوق سلطة من هم فوق العسكري وإن بدا واضحا خوفه وادعاءه التماسك. أخرجنا سجائرنا وأعطينا واحدة للعسكري وأخرى للشاب... وقلنا للعسكري كلاما عن أمر الله بالستر والعفو عند المقدرة وأشياء من هذا القبيل. وقلنا له أنهما لن يعودا إلى مثل

هذه الأفعال ثانية. هدأت ثورة العسكري وأفلت الشاب من قبضته وقال إنه لأجل خاطرنا فقط سيطلق سراحهما. قفز الفتى داخل سيارته، وأدارِ محركها، وكبس الأكسلاتير بدفعة واحدة حتى أقصاه رافعا قدمه الأخرى عن القابض مرة واحدة في الاتجاه المعاكس لقدمه اليمنى، فدارت إطارات السيارة ذات الدفع الأمامي بسرعة هائلة تفوق في عزمها عجلة الانطلاق التدريجية، دارت الإطارات في الهواء مثيرة سحابة هائلة من غبار... قبل أن تصل إلى عزمها الطبيعي فتنطلق فيما كان يعرفه الشباب بالأمريكاني... ولم يشعل الفتى أنوار سيارته.

كنا واقفين نسعل وننفض ملابسنا ورءوسنا من الغبارونردد عبارات عن جزاء المعروف بالشر ونسب الدين للشاب وأمه التي لم نرها. وعندما هدأت سحابة الغبار اكتشفنا أن العسكري لا يزال محتفظًا في يده بـ"الحرز" الذي يخص الفتاة. فأخذتنا جميعا نوبة من ضحك هستيري بينما شعر العسكري بالخزي وطوح باللباس غاضبا في حركة مفتعلة بين الشجيرات... وانصرفنا نحن الستة عائدين إلى موقعنا... وفي التفاتة لأحدنا لمح العسكري يعود ليلتقط اللباس من الأرض، وفي حذر يدسه بين ثيابه.

٤- أحمد شاكر ...

أو ربيب العائـــلة

كان شاكر قريباً لجدي من الدرجة الرابعة أو الخامسة؛ تلك المسافات بين درجات القرابة التي تلغيها - في قرى الجنوب البعيدة - العصبيات القبلية وأواصر الصلب والرحم.

هضيم الوجه أسوده بخلاف أهل النوبة ذوي السمرة الرائقة، جاء شاكر إلى القاهرة في ثلاثينيات القرن، بعد التهجير وارتحال الأهل إلى المهجر الجديد الذي لم يجد لنفسه مكانا فيه.. إلى القاهرة إذن حيث كان جدي وابن أخيه فتحي قد استقرا منذ ما يقرب من عشرين سنة، وصارت لهم بها بيوت وأعمال.

لم يكن لشاكر أي حظ من التعليم سوى تعليم الكتاتيب التي يطلقون عليها في قرى النوبة "الخلوات" والتي لم يكن مشايخها يتخيرون عن تلامذتهم في نطقهم للعربية

بلكنة أهل النوبة التي تقلب حاء العربية هاءً والعين همزةً، وتذكر المؤنث والعكس بالعكسِ. وبالرغم من ذلك كان شاكر ينطق العربية نطقاً سليماً، وسرعان ما أجاد لهجة أهل القاهرة، التِي أوجِد له جدي فيها – وبمساعدة بعض معارفه – عملاً بسيطاً كساع بأحد المصارف الصغيرة التي كان يملكها بعض الأجانب المحليين.

استأجر شاكر غرفة فقيرة بناحية بولاق أبي العلاء، واستقدم زوجته "سلطانة" من البلد لتقيم معه على ما توفر لهما من رزق، وسارت حياته هادئة .. وبعد ذلك بحوالي السبع السنوات أنجبا ولدهما الوحيد "أحمد"، خلالها تكهّل شاكر ونحل، بينما ظلت سلطانه ريّانةً، تخفي تحتِ قشرة الفقر الخارجية والقشف بنياناً قوياً متماسكا يصلُب مع الزمن، مما حدا بالجارات القاهريات بنعتها بآكلة نصيب زوجها من الطعام.

وكثيراً ما كان يلتقي شاكر بجدي، فيجلسان سوياً على رصيف مقهى "وادي الملوك" المطل آنذاك على ميدان عابدين ؛ جدي ببذلته الرمادية الأنيقة، وشاكر بجلبابه البسيط الذي يبرز نحول عظامه. يجلسان من ساعات العصاري حتى ما بعد العشاء حيث يهبط الليل هادئاً في تلك البقعة الهادئة من قاهرة الثلاثينيات، وينخرطان في حديث طويل ينتقلان فيه بين العربية والنوبية بنعومة غير ملحوظة، ووفق درجة السرية التي

يتطلبها الموضوع الذي يعالجانه، أو وفقاً لحظه من الموضوعات المجردة؛ فالنوبية لأمور الحياة اليومية وللشئون العائلية، لحميميتها وللسرية المستحسنة عند مناقشتها في محيط الغرباء، أما العربية فللموضوعات العامة وذات الطابع المجرد، فالنوبية لبدائيتها وفطريتها تكاد تخلو من الكلمات المجردة. موضوعات تدور في معظمها حول الدين، الذي كان كلاهما يهتم به اهتماماً شديداً، وكل بطريقته؛ فشاكر على الرغم من كونه لا يفوت فرضاً، لم تطأ قدماه أرض مسجد، ولم يصل أبداً في جماعة متعللاً: بأننا في النهاية سنبعث أفراداً.

وفي زيارات قريباتنا ممن استوطن القاهرة لجدتي، استهجنت النسوة علاقة جدي (الأفندي ... المتعلم ... الموظف ....) بذلك المأفون شاكر الذي يعرف الجميع حماقاته من أيام البلد القديمة (هكذا صار اسمها) وكان التباين بين الشخصيتين قد بدا واضحاً ومقلقاً حتى لثقافة الجيتو النوبي التي تتسامح مع صداقة عابرة للطبقات والفوارق التعليمية على أسس عرقية وقبلية. وكانت جدتي تغمغم بالنوبية مدافعة عن زوجها بما معناه استحالة تحول الدم إلى ماء، وبكلام عن وصية الرسول بأولي القربى. إلا أن النسوة الأكبر سنا وحكمة تحدثن عن حادثة غرق كادت تودي بحياة جدي صبياً، أنقذه شاكر فيها من موت محقق بينما كانا يتسابقان في قطع عرض النيل سباحة في

البلد القديمة... في الزمن القديم. ودافع جدي عن صداقته لشاكر بكون شاكر مثقفا، يقرأ الكتب ويقتنيها برغم فقره الشديد وحظه البسيط من التعليم. كما أبرز مزية حفظه - أي شاكر - لأنساب القبيلة التي تنتمي إليها عائلتهم بمواليدها ووفياتها وشجرات عائلاتها فردا فرداً، من بقي منهم في البلدة، ومن هاجر جنوباً إلى السودان، أو شمالاً إلى القاهرة والإسكندرية في أعقاب تعلية خزان أسوان.

وسرعان ما بدأت الأيام تخيب آمال جدي في صديقه، إذ أخذت أحوال شاكر في التدهور، وبدأ في تحقيق الظنون فيه. كان شاكر قد انضم إلى طريقة صوفية، زعم أنها تحارب الأعمال السفلية، وهي على الأرجح جماعة باطنية من تلك الجماعات التي امتلأت بها جيوب قاهرة ما بين الحربين تمارس نشاطها السري تحت ستار طريقة صوفية. وبدافع الفضول ذهب " فتحي" ابن أخي جدي مرة مع شاكر إلى "حضرة" من حضرات تلك الطريقة. وعندما عاد حكى أن تلك الحضرة لم تكن كغيرها من الحضرات التي ألفها في قبلي وبحري، فالحاضرون لم يكونوا جلوساً على الأرض كأخوة الطريق، إنما كانوا جميعا جالسين إلى طاولة مستديرة تجمع بكوات محترمين إلى جانب شخص شديد التواضع كشاكر، يتصدرهم شيخ مهيب، ما إن لمح فتحي حتى أهاب به أن يغادر الحضرة إذ لا يدخل عليهم شارب خمر. وأقسم

فتحي أغلظ الإيمان أنه لم يكن قد عاقرها - بالمصادفة وحدها - لثلاث ليال قبل ذلك اليوم، ولم يعرف أبدا أي فراسة أو حدس قادا ذلك الشيخ الجهم إلى هتك سر حياته الخاصة. وبخلاف تلك الإطلالة السريعة من فتحي على نشاط شاكر المتصل بهذه الطريقة الصوفية، ظل عالمه وحركته فيه سراً مستغلقاً على أقرب الناس إليه، ومنهم جدي الذي كثيراً ما ألح عليه ليعرف شيئاً عما يفعل، وكان جواب شاكر الدائم أن هو بالذات يجب أن يبقى بعيداً عن هذه الدنيا.

انخرط شاكر بكامله في نشاط الطريقة، وشيئاً فشيئاً أخذ يهمل واجبات أسرته وأفرط في التغيب عن عمله. كما ازداد نحولاً وازداد وجهه قتامةً وغموضاً، وصار يقطع الشوارع رثاً يحسبه من يراه شبحاً مارقاً بين ظلال العمائر الكبيرة لوسط المدينة أو في ظلمات أزقة بولاق الرطبة. وفصل من عمله إثر تغيبه المستمر فطالت الأزمة احتياجات بيته الضرورية. وبدا أن شاكر لن يصلح لإعادة تأهيله في عمل نظامي إذ استغرقت توجهاته الروحية كل كيانه فذهل عن حقائق الحياة الأولية. وطرقت سلطانة أبواب الأقارب مستنجدة سائلة؛ وهنا تدخل جدي التدخل الأخير في حياة شاكر إذ أجبره على مغادرة القاهرة ليعود إلى الجنوب، حازماً هلاهيله ومصطحباً سلطانة والولد الصغير أحمد وصندوقاً معدنياً عامراً بالكتب الصفراء.

كانت الحكومة قد عوضت أهالي القرية التي انحدر منها جدي، والتي طمرتها مياه تعلية خزان أسوان، بأراض تقع في زمام عزبة "الطود" من أعمال الأقصر وإلى الجنوب منها في منتصف المسافة بينها وبين مدينة "إسنا". وابتنى جدي بيتاً على جزء من نصيبه في الأرض يجاور ربوة مرتفعة من صعد عليها أشرف على زراعات القصب الممتدة، والنيل الذي يبعد مسافة كيلومتر عن بيوت العزبة بخلاف البلد القديمة حيث كانت البيوت تطل مباشرةً على النهر. وفي الأفق الغربي، فيما وراء النهر تلوح جبال "القرنة" عالية. وخلا بعض أيام العطلات حيث كان جدي يأخذ أسرته أو بعضها ليقضوا أياماً في عزبة الطود، ظل البيت مهجوراً شأنه شأن العديد من بيوت القرية التي كان أصحابها مثل جدي من النازحين شمالاً، وقلة للجنوب: إلى "وادي حلفا" التي ستغرق بدورها بعد ذلك بسنوات.

أوى شاكر وأسرته إذن إلى ذلك البيت بتوصية آمرة من جدي، على أن يفلح نصيبه الضئيل من الأرض بجوار ما يستطيعه من نصيب جدي، فيعيش هو وأسرته على ما يغل له. وهكذا تصور جدي أن تلك هي نهاية المأساة. إلا أن اللعنة التي ضربت شاكر في القاهرة قد اجتازت معه الأميال إلى الصعيد. وبين ثنايا الأيام، كان بالإمكان ملاحظة الفرق الكمي والكيفي بين زراعته وما يزرعه مجاوروه من النوبيين والصعايدة و هم ربما

يقومون على ما يضؤل عمّا يزرعه شاكر من قراريط قليلة.

لم يكن يوماً مزارعاً؛ تلك كانت حجة سلطانة زوجته أمام المشفقات الشامتات من الجارات والأقارب. وكانت حجة شاكر أنه نُذِرَ لطريق لا يستطيع الرجوع عنه، وأنه ماضٍ ولو كلّفه ذلك هلاكه؛ هكذا كانت فحوى الرسالة القصيرة والمقتضبة التي ردّ بها على جدي الذي كان قد أرسل له مؤنباً معاتباً.

وقيل وقتذاك أن شاكر قد دخل في نِزال بالأعمال السفلية مع رجل من أسيوط، وكان ذلك كافياً لإيجاد تفسيرٍ شعبي لقلة ولده وضعف زرعه. وانتهى به الحال مختبئاً بالحجرات الداخلية في بيت الطود حيث لم يطل ريح الجوع من بلاط جسده النحيل شيئاً. لأيام مع صندوق كتبه وأصوات نهنهة وبكاء خافتين تسمعهما سلطانة مرتعبة وينكمش في حجرها الصغير أحمد.

وأخيرا، وفي منتصف ليلة صيفية خرج محدثاً جلبة شديدة، هرعت على إثرها سلطانة حاملة مصباحها الغازي، لتجده واقفاً بديوان المنزل، يدق مسماراً إلى الحائط بحجر صلد، وهو يعوي كمن يغالب ألماً قوياً في أعماقه. اقتربت سلطانه منه رافعة مصباحها، وفي حذر وخسارة همست اسمه مرتين، وما إن لمست ظهره حتى صرخ منتفضاً مسقطاً من يدها المصباح، وخرج مهرولاً من باب البيت.

خرج شاكر من البيت في منتصف تلك الليلة، وعبر التلّة الصغيرة واختفى عن عين سلطانة في قلب الصحراء التي ابتلعته، فلم يظهر بعد ذلك أبداً. وبجوار باب البيت كان الصغير أحمد متعلقاً بذيل جلباب أمه الأسود.

حزن جدي لذلك الخبر كثيراً، وعاود الاعتكاف بغرفته. وبعد شهور محددة شرعاً استطاعت سلطانة أن تحصل علي حكم من المحكمة باعتبار شاكر متغيبا، ومن ثم طلقت منه غيابيا، وبعد ثلاثة شهور أخرى تزوجت من "بخيت" وهو أيضاً في عداد أقاربنا وفقاً للحسبة التقليدية. واستطاع بخيت بشخصيته المرحة، وطريقته المخاتلة في إدارة صراع الحياة، أن ينسيها سنوات الرعب والقلق التي قضتها مع شاكر.

وجد جدي نفسه منجذباً بواجب أخلاقي لتبني الولد الصغير أحمد. وبالفعل استقدمه من الطود إلى القاهرة، بعد أن تعهد أمام سلطانة، وأمام نفسه قبل ذلك، أن يكفله تربية وتعليماً حتى يشق لروحه طريقاً في الحياة. سيعيش أحمد الصغير بين أبنائه كواحد منهم لا يفرق بينهم - كما باتت النوايا الحسنة - في الحقوق والواجبات.

إلا إن أحمد شاكر كان يقل عمراً عن أصغر أبناء جدي بحوالي الخمس سنوات. فتعاون ذلك مع نفسيه اليتيم التي تلبسها رغماً عنه، وبرغم النوايا الحسنة، على وضعه داخل تلك العائلة في مرتبة تقع في منتصف المسافة بين الابن الأصغر والخادم. ففيما كان هو بعد صبياً كان بقية

الأبناء مراهقين، وعندما صار مراهقًا كانوا هم شبابًا. فمن سيساعد المرأة (جدتي) وقد اكتهلت في عمل المنزل؟ ومن سيشتري الخبز أو الخضراوات من سوق الاثنين القريب بالناصرية سوى الصغير أحمد... وعندما أراد جدي أن يميزه بإيهابه لعلوم الدين والقرآن، أدخله التعليم الأزهري، فإذ هو يمايز مرةً أخرى بينه وبين أبنائه الحقيقيين، الذين كانوا قد انتظموا من البداية في سلك التعليم المدني؛ فالثابت تاريخيًا أن التعليم الأزهري كان دومًا أقل تكلفةً.

ومن هنا... ودون أن يقصد أحد تمام القصد، زرعت بذرة الشقاق بين أحمد شاكرٍ والعائلة التي عاش في كنفها. وفي هذه المسافة التي ضربت بينه وبين العائلة راحت تتراكم معرفته وضديته. وعندما بلغ في التعليم أوائل المرحلة الإعدادية - الأزهرية بالطبع - ذهب أحمد من تلقاء نفسه والتحق بالعمل كصبي لدى ترزي وجد على باب دكانه ورقة تطلب صبيًا حاد البصر للعمل بالمحل. وهو الذي عرف في نفسه خاصية حدة البصر مقارنًا إياها بمثيلاتها لدى أبناء جدي - أي أبي وأعمامي - الذين ورثوا عن أبيهم ضعف البصر. كان يقضي الصباح في استظهار الفقه الشافعي وألفية ابن مالك، وبعد الظهر يخيط بالإبرة ما سيعيد عليه الأوسطى بماكينة "السينجر" إنجليزية الطراز.

ما إن حصل أحمد على ثانوية الأزهر، والتحق

بجامعته (كلية التجارة)، حتى غادر منزل جدي، وأقام باعتباره طالبا مجاورا من محافظة أسوان بغرفة بتكية محمد بك أبو الدهب التي كانت موقوفة على مجاوري الأزهر قبل أن تسجلها مصلحة الآثار معلماً أثريا. وكان قد بلغ في فن الحياكة رتبة "المقص دار" مما أهله للعمل لدى ترزي متوسط الحال بالباطنية، فضمن له دخلاً لا بأس به، لاسيما في مواسم الأعياد و دخول المدارس.

وعلى تاريخ مواز، كان أبي وإخوته قد تزوجوا، وكنت قد أنجبت وصرت طفلاً يافعا عند الظهور الأخير لأحمد شاكر، وذلك في العزاء الذي أقيم لوفاة جدي في منتصف السبعينيات. بعدها لم يظهر أحمد شاكر نهائيا في محيط عائلتنا. وآخر أخبار وصلتنا عنه - عندما التقاه عمي الأصغر صدفة في شارع القصر العيني - أنه تخرج من الجامعة بعد عشر سنوات قضاها بين دكان الباطنية وربع محمد أبو الدهب الذي أضطر لمغادرته بعد استيلاء مصلحة الآثار عليه، ليسكن بغرفة بالدراسة، ثم حصوله على وظيفة "محاسب ثالث" بالهيئة العامة للتأمينات الاجتماعية، ومواصلته لعمل الخياطة في المساء حتى تسير الحياة.

في منتصف سنوات دراستي الجامعية، كانت قد رسخت لدي فكرتي عن نفسي ككاتب. فكنت أقضي النهارات متسكعا، أحمل حافظة من الجلد البني تحوي

ورقًا وأقلامًا وبعض كتب الأدب ودواوين الشعر، وأجول على المقاهي. مقهى "ركس" بشارع عماد الدين كان محطة شبه يومية لي في تلك الأيام. أجلس في المقصورة الخارجية للمقهى: المقصورة التي كانت تطل - قبل أن تندثر ويندثر المقهى بأكمله - على الشارع الجانبي الذي يصل شارع عماد الدين بشارع زكريا أحمد (جلال سابقا). كان رواد ذلك الجانب من المقهى في معظمهم من غريبي الأطوار، مما كان يجعل للمكان طابعا خارج الزمان. لساعات أجلس إلى نفسي، أدخن ككاتب، وأتأمل وجوه الزبائن ككاتب. أقرأ فقرات من الكتب التي أحملها، وأحاول كتابة مقاطع شعرية فأنجح حينا وأخفق أحيانًا...

عندما رأيته لم أتعرف على وجهه مباشرة. كان يجلس على طاولة عند أول المقصورة، بجوار كشك الأطعمة الملحق بالمقهى، يأكل طبقًا من المكرونة المضافة إليها مكعبات الكبدة السوداء المقلية في الزيت. يأكل دون رغبة، كأنه يتزود لمواصلة السير. وشيئًا فشيئًا عادت ملامحه إلى ذاكرتي كما لو كانت آتية من مكان سحيق، وتطابقت مع الوجه الذي يلتهم المكرونة على مبعدة أمتار: الوجه الأسود الهضيم ذاته.

ازدرد آخر ملعقة عندما انتبه لعيني المحدقتين في وجهه، وظهر عليه الارتباك، وسرعان ما دفع ثمن طعامه للنادل وانصرف. وتأكدت أنه هو عندما تذكرت معلومة

عن عمله بهيئة التأمينات القريبة مِن موقعنا. لكن لم يـــدر بذهني أن يكون هو قد تعرف علي نظرا لأنه لم يرني منذ كنت طفلاً.

مر ما يقرب من دقيقة بين انصرافه واللحظة التـــــي قررت فيها أن ألحق به وأكلمه. أقل من دقيقة دفعت فيهـــا حساب قهوتي، ولملمت أوراقي فـــي الحافظـــة الجلديـــة، وانطلقت خلفه. وعندما انحرفت في شارع الألفي - كمـــا خمنت أنه سيتوجه - كان قد بلغ ميدان عرابـــي متوجهـــا صوب التوفيقية. ورأيت ظهره يبتعد في الزحام، مســـرعا في مشيته على حافة الركض، يتلفت خلفه كمطارد حقيقي. كنت أجاهد لألحق به، بذلك الوجه ذي الملامح الغامضـــة التي أعادت إلي ذكرى حكاية قديمـــة. بينمـــا هـــو يفـــر أيضا من ملامح قديمة عرفها؛ ملامح أبي وأعمامي التـــي تسكن وجهي.

صدر للكاتب:

ناس وأحجار   مجموعة شعرية   طبعة خاصة ١٩٩٥